





السلسلة الثقافية لطلائع مصر

٤٩

١٩ يوليو ٢٠٠٨

عبد الله النديم
و .. حلم الوطن

علي ماهر عيد

إهــــــداء ٢٠٠٩
رصيد عام

المراسلات
المجلس القومي للشباب
شارع ٢٦ يوليو، ميدان سفنكس
تليفون وفاكس: ٣٣٤٦٧٣٦٧
Web: www.alshabab.gov.eg



قممم مصرية



عبد الله النديم
و.. حلم الوطن





رئيس مجلس الإدارة

أحمد أنيس

رئيس التحرير

ياسر رزق

مدير التحرير

عبدالناصر عيسوى

تنفيذ

حسام عنتر

عبد الله النديم
و.. حلم الوطن

علي ماهر عيد

العدد ٤٩
من السلسلة الثقافية لطلائع مصر
صادر مع مجلة الإذاعة والتليفزيون
١٦ رجب ١٤٢٩ - ١٩ يوليو ٢٠٠٨

الفصل الأول
مفاجأة الليلة

تجمع الجالسون حول إناء فخاري (منقد) مليء بالقوالح المشتعلة.

يتدفأون ويتسامرون.

والحاج حسن الطرابيشي يوزّع عليهم القهوة.

أما الشيخ علي العطار فكان يحلق بهم على أجنحة الخيال ويطير بالبساط السحري إلى مدينة النحاس، ليروا ماذا فعل الشاطر حسن من بطولات لإنقاذ ست الحسن من الأخطار التي حاقت بها.

كان مجلسًا من مجالس السَّمَر المتعدّدة في مدينة الإسكندرية يتجمَّع الأدباء والمتأدّبون والمشايخ يحلقون على أجنحة الخيال مع ألف ليلة وليلة، ويضحكون لنوادر البخلاء ويطربون لمواقف الأغاني للأصفهاني.

سمعوا نقرات خفيفة منغمة على الباب.

أسرع الحاج حسن لفتح باب محل الطرابيش الذي يجلسون فيه.

وما إنْ هَمَّ بالترحيب بالقادم حتى توقَّفَت الكلمات في حلقه.

ما هذا؟؟! الشيخ العشري يصطحب صبيًا في الثالثة عشرة إلى مجلسهم.

امتلأت عينا الحاج حسن الطرابيشي بالدهشة والتساؤل وهو يحملق في الصبي.

الشيخ العشري سارع بالكلام:

- أغلق الباب يا طرابيشي، وأنقذنا من سياط البرد.

لكن نظرات الطرابيشي تجمدت على الصبي الصغير.

كان صبيًا أسمر، نحيلاً، هزيلاً، ثيابه بسيطة رغم نظافتها.

هز الحاج حسن كتفيه استنكارًا، وثبَّتَ الطربوش فوق رأسه بحركة عصبية، وكأنه يرفض هذا الصبي.

وتوقف العطار عن قص حكايته الشاطر حسن، وهو يحملق في الصبي الهزيل.

ألقى الشيخ العشري السلام على الجالسين المتسامرين وقال مبتسمًا، وهو يحاول أن يبدد دهشتهم:

- هذا الصبي سيكون مفاجأة الليلة.

ورأى العطار أن يعود إلى حديثه، فقال:

- دعوني أكمل قصة الشاطر حسن.

تنبَّهَ الصبيّ، وتحوَّل إلى آذان صاغية، وجلس في أحد الأركان.

ولكن أحد الجالسين، قال:

- نريد أن نعرف ما هي المفاجأة في وجود هذا الصبي؟

أجابه الشيخ العشري بصوت رصين:

- سترى المفاجأة في نهاية السمر، وأعدكم أيها السادة أنكم ستضحكون كما لم تضحكوا من قبل.

فأكمل العطار قصة الشاطر حسن.

واستمر السمر مع الشعر والزجل ونوادر البخلاء.

والصبي يتابع ما يحدث، وهو صامت متيقظ. تبرق عيناه الصغيرتان بنظرات عجيبة.

وقبل أن تنتهي الليلة، قال الشيخ عشري بلهجة خطابية:

- والآن.. أيها السادة.. إلى المفاجأة.

صمت الجميع مترقبين.

قال الشيخ عشري بفخر:

- هذا الصبي تلميذي... اسمه عبد الله مصباح، أعجب مَنْ رأيتُ من الصِّبية، فهو يحفظ كل شيء من أول وهلة.

وصمَتَ الشيخ عشري، وهو يدير نظراته في الجالسين وعندما تأكد من إنصاتهم أكمل قائلاً وهو يشير إلى عبد الله مصباح.

- هذا الصبي يستطيع أن يقصَّ عليكم كل ما حدث في جلستكم هذه كلمة... كلمة.

صاح الجميع بلهفة:

- هيا يا عبد الله.

وبدأ الصبي يحكي بصوت خافت ثم ارتفع الصوت بنبرات قوية واثقة ثم وقف الصبي، وأخذ يتحرك، ويقلد كل شخص موجود وتقمص الأدوار ببراعة مذهلة. حتى خلجات الوجه، وحركات الأيدي، وهزَّات الرءوس، لم تفلت من تقليده.

انطلقت عاصفةٌ من الضحك والذهول والإعجاب. مبعثها الصبي النحيل الهزيل، وأخذوا يستزيدونه.

وسيطر الصبي على الجلسة، وهو يلعب على أوتار القلوب فيفجر الضحكات السعيدة، والمشاعر الجياشة واختفت الفوارق، وامتدت السهرة حتى أذان الفجر.

الفصل الثاني
إلى المجهول

كان الخبَّاز مصباح في قمة غضبه، وهو يصيح في وجه ابنه عبد الله، والابن واقف صامت هادئ، مما زاد في ثورة الأب الذي انفجر قائلاً.

- لقد بلغت الخامسة عشرة، ولم تصلح في شيء سوى التجوال مع ذلك الشيخ المجنون.

ثم أمسك ابنه من كتفه، وجره إلى الباب، وهو يقول:

- اذهب من أمامي...

وخرج الابن وصوت الأب يلاحقه:

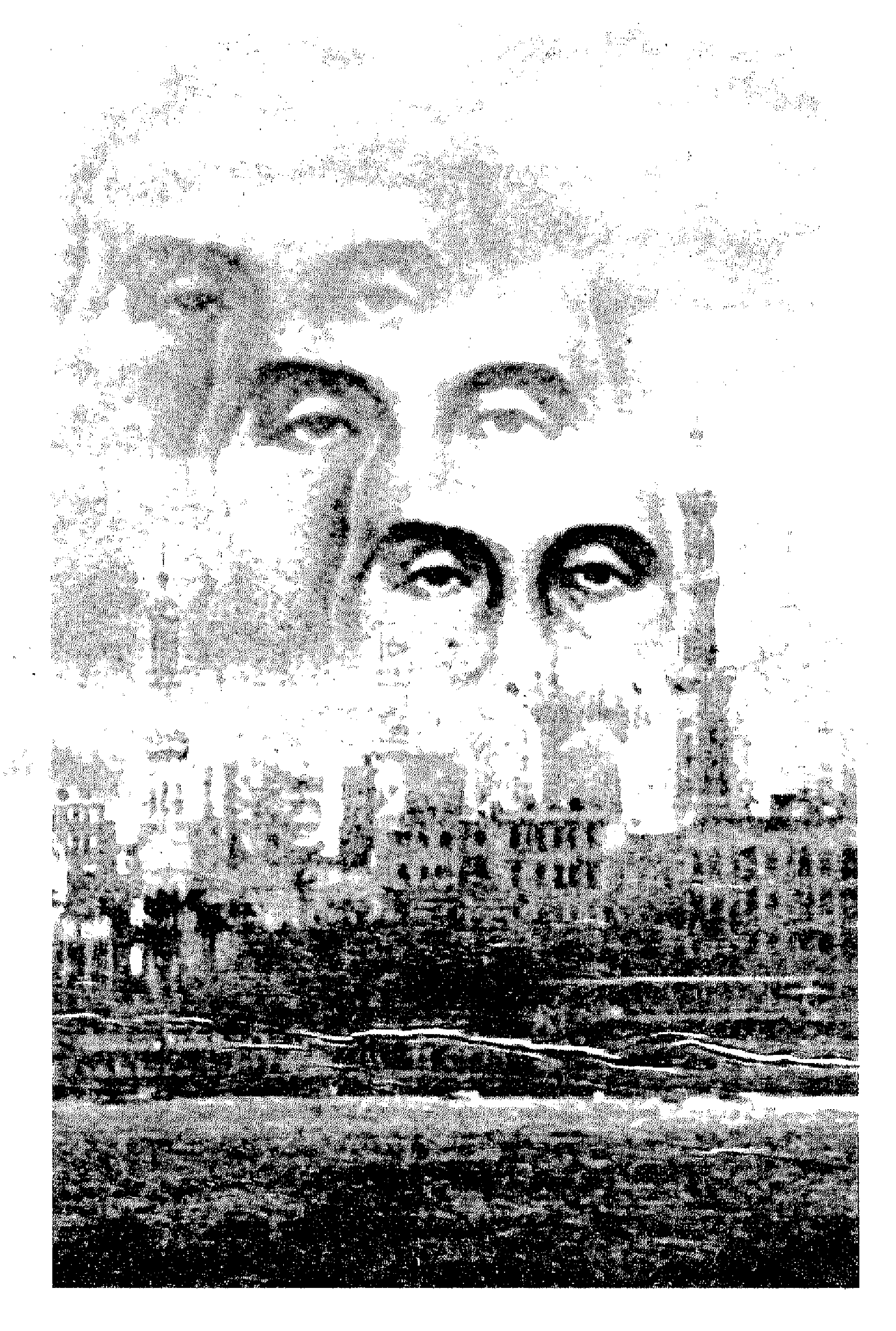
- لا تُرِني وجهك بعد الآن.

وآخر ما سمعه من كلمات غاضبة كانت:

- عليك أن تعول نفسك.

وجَد العُذر لأبيه مصباح الخباز. فقد عمل معه في المخبز، ولكنه كان يوزع الخبز مجانًا لعمال الميناء رأفة بأحوالهم البائسة.

ونصحه أبوه بألاَّ يقضي جُلَّ وقته في قراءة الكتب التي يمدُّه بها الشيخ العشري. ونفد صبر الوالد من هذا الابن الذي لا يعرف



إلا القراءة والتأمل، وممازحة الناس. فطرده إلى المجهول...
خالي الوفاض من أيّ نقدية.

- أين تذهب يا عبد الله؟

- حيث تقودُني قدماي.

هكذا كان يحدِّث نفسه.

وقادته قدماه إلى محطة السكة الحديد. محطة سيدي جابر. ركب القطار المتجه إلى القاهرة. جلس على المقعد بلا مبالاة. ولكن نظراته تعلقت بالإسكندرية. الإسكندرية... قطر الندى. ودفء الذكريات. ولقاء القلوب المحبة. وحضن الأم الحنون.

أفاق من تهاويمه على صوت المحصِّل.

- تذكرة... تذكرة.

نظر إلى المحصل بهدوء عجيب، وقال له:

- ليس معي تذكرة، ولا توجد معي نقود.

تأمله «الكمساري» مغتاظًا، ولكن شيئًا ما يشع من هذا الصبي هدأ من انفعالات المحصل، فقال بلهجة آسفة:

- كان من الممكن أن أتغاضى عنك، لولا وجود المفتش الذي لا يرحم في القطار.

وكأن المفتش على ميعاد معه، فقبل أن ينتهي المحصل من كلامه وصل المفتش.

ونظر إلى الصبي مرتابًا، فهيئة الصبي وهدوؤه مستفزان للمشاعر. سأله المفتش بصوت مشحونَ بالاتهامات:

- هل معك تذكرة؟

أجابه عبد الله بهدوء وعفوية:

- معي تذكرة داوود.

هذه الإجابة لا تلائم هذا الصبي، ولذلك بادره المفتش معلقًا:

- مفلس... وتسخر.

قال عبد الله بنفس الهدوء والعفوية:

أنا لا أسخر... فأنا معي كتاب تذكرة داوود الأنطاكي فعلاً.

نظر إليه المفتش غير مصدق وقال:

- إذن فأنت تعرف القراءة؟!

ابتسم عبد الله ساخرًا وأجاب:

القراءة والكتابة والشعر والأغاني للأصفهاني وسيرة أبو زيد الهلالي، وعنترة بن شداد فارس الفرسان، وصلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين.

تسللت ابتسامة صغيرة إلى وجه المفتش. وقال لنفسه: «إنه صبي مُسَلٍّ في وقت مُمِلّ».

أخرج المفتشُ من جيبه ثمن التذكرة. وخاطب المحصِّل قائلاً:

- أعْطِه تذكرة، وخذ ثمنها.

تعجَّبَ المحصل وقال وهو يتهيأ لقطع التذكرة.

- ولماذا تدفع يا بك؟

أجابه المفتش بصوت رصين:

- يجب أن تأخذ الحكومة حقها.

ونظر المفتش إلى عبد الله، وسأله:

- أين ستنزل؟

فردَّ عبد الله مبتسمًا:

- كم تستطيع أن تدفع؟!

ظهر الضيق والاستنكار على وجه المحصل من هذا الصبي وقال غاضبًا:

- كيف تجرؤ على مخاطبة حضرة المفتش المعظم بهذه اللهجة وأنت جالس أيها القرد؟!

ولكن يا للعجب، فالمفتش كان يضحك، فضحك المحصل مجاملة لرئيسه، وسأله المفتش من خلال ضحكاته:

- ما رأيك في طنطا؟

أجابه عبد الله ببساطة وتلقائية:

- ما دام ستدفع، فمن حقك أن تختار.

امتلأ قلب المفتش بمشاعر طازجة لم يعاينها من قبل ورأى أن يتشبث بهذه المشاعر البهيجة، فقال للصبي:

- لا تتحرك من هنا، لي رغبة في الحديث معك بعد أن أنتهي من التفتيش.

قال عبد الله، وهو يشير إلى مكان أمامه:

- ولماذا لا تجلس الآن، بدلاً من أن تضطر للدفع لمفلس آخر.

تقافزت المشاعر السارَّة في قلب المفتش، فقهقه ضاحكًا وقهقه المحصل مجاملة. أما الصبي فإنه حتى لم يبتسم.

أشار المفتش للمحصل لكي ينصرف، ثم طلب من الصبي أن يتبعه، وجلس معه في ديوان خاصٍّ بالدرجة الأولى.

وقال المفتش معرِّفًا نفسه:

- اسمي عبد العزيز حافظ، وعملي مفتش بالسكة الحديد.

قال الصبي وكأن الكلام على طرف لسانه:

- اسمي عبد الله مصباح، ولم أصلح في أي عمل حسب رأي أبي الخباز مصباح.

سأله المفتش عبد العزيز:

- وماذا عن رأيك أنت؟

هز عبد الله رأسه بحركة عصبية وقال:

- أنا أعتقد أن هناك عملاً ما أصلح له، وسأبحث عنه في بلاد الله الواسعة.

قال المفتش وقد لاحظ حركة عبد الله العصبية:

- احْكِ لي عن حياتك يا عبد الله.

وأنصت الرجل الذي جاوز الخمسين، يستمع بانبهار إلى الصبي الأسمر النحيل.

والصبي يحكي وينتقل من حكاية إلى حكاية، ويلعب بمشاعره، فيصعد به إلى أعلى درجات البهجة الموشاة بالسرور. وينزل به

إلى وهاد اليأس المفعم بالخيبة. ويصل إلى تفجير الدموع. ثم يقلب الموقف كله إلى مناطق من الشعور تفجر الضحكات.

يا لهذا الصبي؟! وما أجمل هذا اليوم الذي تلون بكل هذه المشاعر. وفي طنطا.

نزل المفتش ممسكًا بيد عبد الله. وعبد الله يحكي، والمفتش يضحك، والمحصل ينظر من نافذة القطار، يضرب كفًّا بكف تعجبًا، بل وكل من عرف المفتش عبد العزيز المتجهِّم، لا بد أنه شارك الكمساري في تعجبه. فالمفتش لا يكف عن الضحك والابتسام.

وفي بيته: فتح عبد العزيز حجرة المسافرين لعبد الله وأجلسه وخرج إلى زوجته، وقال لها:

- أعِدّي الغَدَاء لاثنين.

وتساءلت الزوجة هامسة:

- من ضيفك يا بك؟!

قال عبد العزيز متحفظًا:

- صديق.

انصرفت الزوجة لشئونها.

وفي المطبخ، سمعت الزوجة ضحكات حضرة المفتش وهمست لنفسها:

يا للعجب... عبد العزيز بك يضحك، ويقهقه بهذا الشكل!!

ثم أنكرت سمعها، وهي تسمع صوت صبيٍّ صغير، وأرهفت السمع، وتأكدت من أن الصوت لصبي. وعندما جاء زوجها، سألته باستنكار:

- من يكون هذا الولد؟

قال عبد العزيز هامسًا:

اخفضي صوتك من فضلك، إنه صبي ذكي.

ولكن الزوجة لم تخفض صوتها، وقالت محتجة:

- فليستخدم ذكاءه بعيدًا عنا.

ثم أكملت وكأنها تذكّر زوجها بشيء نسيه.

- فالبيت مليء بالنساء.

وسمع الصبي ما قالته الزوجة. وعندما وضع عبد العزيز صينية الطعام أمام عبد الله رحّب به عبد العزيز، ودعاه إلى المائدة الشهية. لكن عبد الله لم يستطع أن يأكل كما يشتهي، رغم جوعه الشديد. وشعر عبد الله بقلق شديد، ورغبة عارمة في الانصراف. فاستأذن من مضيفه عقب الطعام مباشرة. وتمسك به عبد العزيز، وقال له بود حقيقي.

- أريدك معي.

وقال عبد الله بنفس الود:

- وأنا أحب ذلك، ولكني تذكرت شيئًا هامًا.

سأله عبد العزيز بلهفة:

- ما هو؟

أجابه عبد الله وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

- نسيت رغم أنه شيء مهم جدًا.

وأدرك عبد العزيز أن سهامَ كلماتِ زوجتهِ قد جرحت الصبيّ.

فقال له بأسى رقيق:

- أرجو أن أراك، في أقرب وقت، وفي أيٍّ وقت تحتاجني فيه.

واحتضنه عبد العزيز، ووضع في جيب الصبي بعض النقود. وتركه ينصرف، وراقب خطواته وهو يبتعد. وكل خطوة في البعاد كانت تلون البهجة التي كانت في قلب عبد العزيز بلون اللوعة، والأسى الرقيق الشاعري أما عبد الله فإنه قصد الميدان وجلس على مقهى يمارس هوايته في مراقبة الناس وانتظار ما تأتي به المقادير.

الفصل الثالث

موالد ومواويـل

جاء رجل يلبس جلبابًا أزرق، ويمسك بصندوق صغير من الخشب، وجلس الرجل بجانب عبد الله.

وطلب الرجل فنجانًا من القهوة.

وعندما وضع صبي المقهى الصينية على الطاولة، ونظر إلى عبد الله وسأله بصوت غليظ:

- ماذا تريد يا سيدنا؟

نظر إليه عبد الله باستهانة، وقال بصوت واثق:

- قهوة مضبوط.

لم يتحرك صبي القهوة من مكانه، وسأل عبد الله:

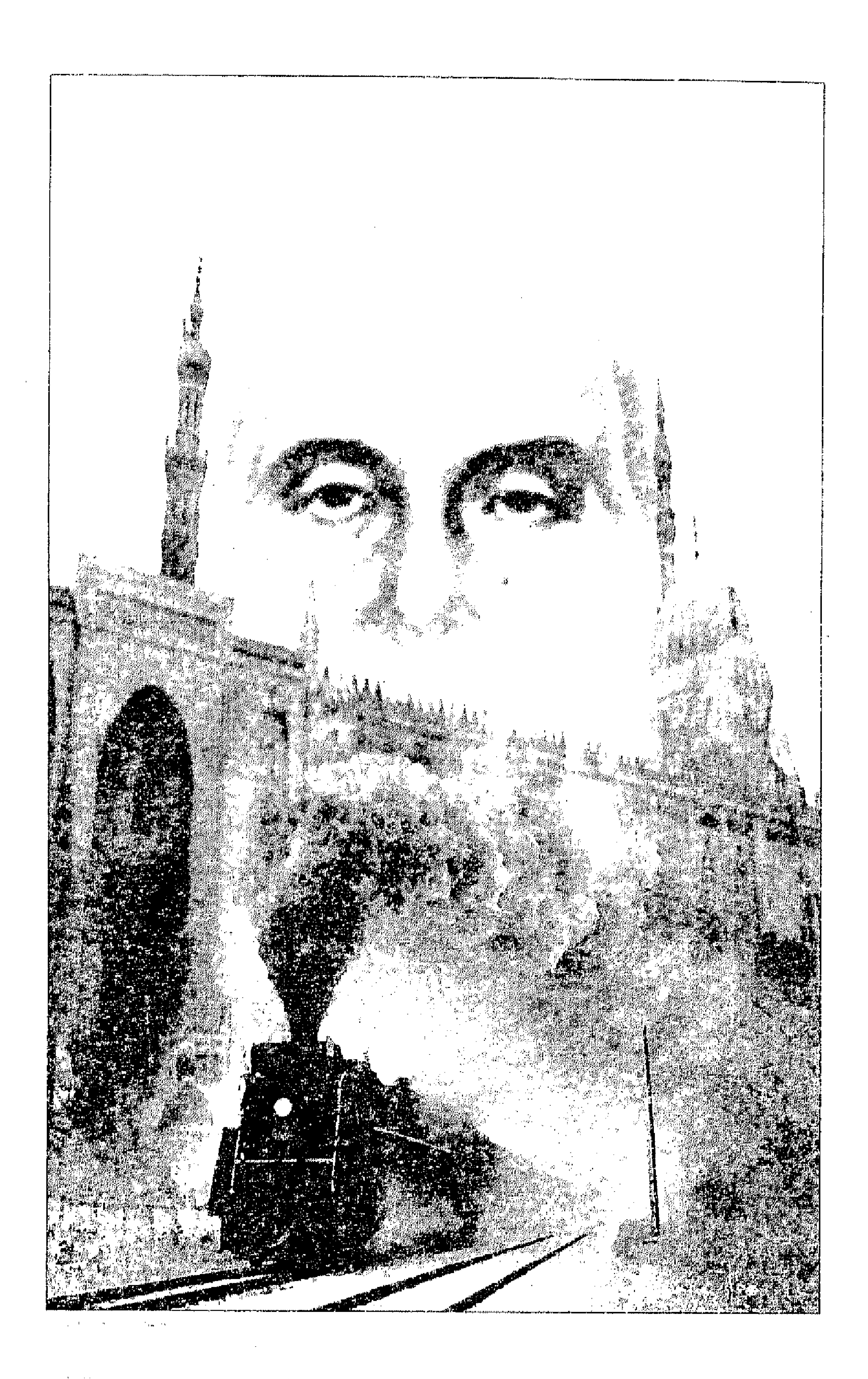
- أرني النقود.

بهدوء سأله عبد الله:

- وهل تطلب ذلك من الآخرين؟

أجاب صبي المقهى باتهام:

- لا أريد فلسفة، إن كان معك نقود فأرني إياها، وإلا فانطلق بعيدًا عنا.



تدخَّل الرجل، وقال لصبي المقهى:

- أحضرْ له ما يريد على حسابي.

تأمَّلَهُ عبد الله، ووجده رجلاً بسيطًا منطلقًا، فقال له:

- شكرًا يا سيدي.

شعر الرجل بسعادة من كلمة سيدي، وسأل عبد الله:

- أين أبوك؟

عبد الله بتلقائية:

- في الإسكندرية.

قطَّب الرجل وجهه، وسأل:

- هل أنت تائه:

نظر عبد الله إلى الصندوق الصغير الذي مع الرجل، وأدرك أن الرجل يعمل حلاقًا ويحمل عدَّته في هذا الصندوق الخشبي.

فقال: لا... أنا أبحث عن عمل بارد في هذا الحر الشديد.

ضحك الحلاق لأن الصبي يُنكِّت بثقة شديدة.

وعندما انصرف الحلاق من المقهى، كان عبد الله يحمل صندوق عدَّة الحلاقة ويسير خلفه.

تَوَافَدَ زُوَّار مولد السيد البدوي، على الخيمة التي أقامها الحلاق محمد معبد في ركن الميدان. جاءوا لحلاقة رءوسهم، وسماع حكايات صبيه الذي يضحك الثَّكْلَى.

فرح محمد معبد كثيرًا بهذا الصبي قدم السعد. فالفلاحون يدفعونَ البيض والخبز والقمح ثمنًا للحلاقة. كما كان عبد الله

يمسك بالأطفال الذين جاءوا للختان، ويحكي لهم حكايات تهدّئ من انفعالاتهم وتُضحكهم.

وجد عبد الله ركنًا آمنًا في خيمة محمد معبد، ينام فيه، ويأكل بيضًا وجبنًا ومشًّا. وأحبه محمد معبد، فالولد صنع له شهرة لم يكن يحلم بها.

وانتهى المولد بأيامه الحلوة، وشخصياته المتعددة التي حرص عبد الله على أن يقيم علاقات معهم، ويتعرف عليهم وعلى قراهم.

لم يتركه محمد معبد، فقرر أن يصحب عبد الله معه إلى قريته. وفي القرية أصبح محل الحلاق محمد معبد مكانًا للسمر وسهر الفلاحين، وشعر محمد معبد بالضيق لأن الفلاحين يأتون للسهر والسمر ثم ينصرفون دون حلاقة. وانتقل الضيق إلى عبد الله فقرر أن يجرب حظه في قرية أخرى من قرى الغربية.

وفي إحدى القرى رأى عبد الله حلقة من الصبية والأطفال تحيط بصبيين يتشاجران، وقف يشاهد، فوجد أحدهما أعرج هزيلاً، وكان الجميع متحاملين على الصبي الأعرج، وينعتونه بألقاب بذيئة، ويضحكون ويسخرون منه ومن عرجه.

دخل عبد الله إلى الحلقة، وقلبه يرفرف، إشفاقًا على الصبي الذي مسّ شغاف قلبه بانكساره. وحاول عبد الله فضّ المشاجرة، وإنقاذ الصبي الهزيل. ولكن الصبية لم يعجبهم ذلك، فتجمّعوا

حول عبد الله وأوسعوه ضربًا، ودافع عبد الله عن نفسه، وقذف الأطفال بالحجارة وهرب الصبية بعد أن سالت دماء عبد الله.

ونظر عبد الله إلى الصبي الأعرج فوجده يبكي فقال له باسمًا وبصوت يقطر حنانًا:

لقد كنتَ بطلاً، وخافوا منك وهربوا، أنت رجل شجاع، هيا نضمد الجراح، ونجلس في الظل. وجلس عبد الله مع الصبي الجريح في ظل شجرة التوت.

قال الصبي الهزيل له:

- اسمي أحمد جودة.

وضع عبد الله كفه على كتف أحمد جودة بحنان، وقال له:

- وأنا عبد الله مصباح من الإسكندرية.

فتح الصبي فاه إعجابًا، وهو يصيح إعجابًا:

- من الإسكندرية؟! يا سلام!! يا حلاوة يا ولاد!! يا جاه النبي!! لكن أين توجد هذه الإسكندرية؟!

ابتسم عبد الله ابتسامة كبيرة، وهو يقول:

- عند سيدي مرسي أبو العباس.

ازدادت دهشة الصبي وقال:

- ياه... قاعدة عند سيدك مرسي!!

وضحك عبد الله وضحك أحمد جودة

وأصَرَّ أحمد جودة على أن يصحب عبد الله معه إلى الغداء. وفي عشة صغيرة مصنوعة من عيدان الذرة كان الصبي أحمد جودة يعيش مع أمه منفردين.

وعاين عبد الله بؤسهما، فأخرج من جيبه قليلاً من النقود. حاول أحمد جودة أن يرفض النقود بإباء، لكنَّ أمه أسرعت وخطفت النقود، واشترت جبنًا وفجلاً وأعَدَّت الغَداء.

وارتفعتْ ضحكات أحمد جودة من أثر حكايات عبد الله وطلب أحمد جودة من عبد الله أن يعيش معه فهو وحيد، وفي هذه الليلة شعر أحمد جودة بدفء الصداقة وحلاوة الودّ، وامتلأ وجدانه بسعادة حقيقية.

وعندما نام احتضن صديقه الجديد، وتصاعدت الدموع إلى عينيه... دموع من نوع غريب، دموع حب مفتقد، وشوق حبيس، دموع صبي افتقد الودَّ في حياته ووجده فجأة، وهي دموع خوف من فَقْدِ الصديق الوحيد الذي وقف معه في الشدة وأسمعه كلمات طيبة، وتودَّد إليه ودًّا صادقًا، وكأن أحمد جودة يقرأ الغيب..

فعند صحيانه لم يجد صديقه، وتدفقت الدموع من عينيه، دموع شوق إلى الصديق. وبكى قلبه المنكسر، وجرى يبحث عن الصديق الذي خطف قلبه وهرب بعيدًا.

أما عبد الله فإنه لاحظ تبرم أم أحمد جودة، وأعلنت بتصرفاتها عن عدم رضائها عن وجوده.

وغادر عبد الله القرية كلها. قادته قدماه إلى قرية أخرى. دخل مصلية للصلاة، وجلس بعد الصلاة ينظر إلى بعيد. أفاق من شروده على صوت يسأله عن اسمه وعن بلده، رأى عبد الله شيخًا

في الخمسين. وأخذ يحكي للشيخ حكايات من التاريخ الإسلامي. وفوجئ الشيخ بأن الصبيَّ يحفظ القرآن حفظًا جيدًا.

وفي المساء كان يسير عبد الله مع الشيخ محمد خليل مأذون القرية وهو يحمل دفترًا كبيرًا.. متوجهين لعقد قران عروسين. وقدَّمه محمد خليل لفلاَّحي القرية بأنه الشيخ عبد الله حافظ كلام الله. وأعجب الفلاحون كثيرًا بالشيخ الصغير الذي حضر عقد القران، وبعث الحيوية في الجمع وأطلق الضحكات، وارتجل المواويل والأغاني والأزجال.

تجوَّل الفتى في قرى الغربية والدقهلية. خالط الفلاحين والعُمَد والنجارين والحلاقين والصيادين. لم يترك مولدًا أو فرحًا أو تجمعًا إلا وكان متفاعلاً معهم يحكي ويستمع، يقول المواويل ويستمع إليها. يستمع للسِّير الشعبية في الأسواق، ثم يرويها وهو جالس على المصاطب. وجلس في ظل أشجار التوت، وأطلق الموال يشكو فيه غربته ويحكي فيه أشواقه.

وأخيرًا شعر برغبة جارفة في أن يكون موظفًا، ويستقرَّ في مكان واحد.

الفصل الرابع
موظف التلغراف

فتح المفتش عبد العزيز حافظ الباب. رأى أمامه شابًا في السابعة عشرة، نحيلاً هزيلاً، ولكن عينيه تُشعان ببريق غريب. نظر إليه الشاب وعيناه ممتلئتان بالرجاء وسأل بصوت قلق:

- ألا تعرفني يا بك؟!

أيكون هو نفس الصبي الذي خطف قلبه منذ أكثر من عامين؟!

ارتعش قلب عبد العزيز حُبًّا، وتعالت ضربات قلبه شوقًا، وهتف الرجل غير مصدق: مَن؟! عبد الله مصباح!

وفَرَدَ الرجل ذراعيه، وأسرع الفتى إلى الارتماء في حضنه. فترقرقت الدموع في عيني الرجل، لكم يحبه؟!

وفي حجرة المسافرين، انطلق عبد الله يحكي، والرجل يضحك... ويضحك، كما لم يضحك طوَالَ عُمره. وعبد الله ينتقل من حكاية إلى حكاية.

وتنبَّهَ عبد العزيز حافظ إلى أن كل الحكايات من نوع شر البلية ما يُضحك، فالفتى يتحدث عن بؤس الفلاحين وحياتهم وحيلهم الساذجة، وصبرهم الطويل وآمالهم البسيطة. ويغزل من تلك الحياة البائسة نسيجًا مُبْهِجًا ضاحكًا.

وفي هذه الليلة أقسم المفتش عبد العزيز على الفتى أن يكون ضيفه إلى ما شاء الله. ولم ترَ الزوجة بُدًّا من مسايرة زوجها، خاصة وقد رأته حاسمًا قاطعًا.

وفي اليوم التالي، خرج الفتى عبد الله مع المفتش عبد العزيز متشابكي الأيدي، وعبد الله يحكي، وعبد العزيز يستزيد حتى وصلا إلى مبنى محطة طنطا.

قال عبد الله، وكأنه حسم الأمر مع نفسه:

- أريد أن أتعلم مهنة التلغراف.

وفي مكتب التلغراف، كان فانوس أفندي جالسا خلف مكتبه. وهو رجل في الأربعين من عمره، شاحب اللون متجهم الوجه.

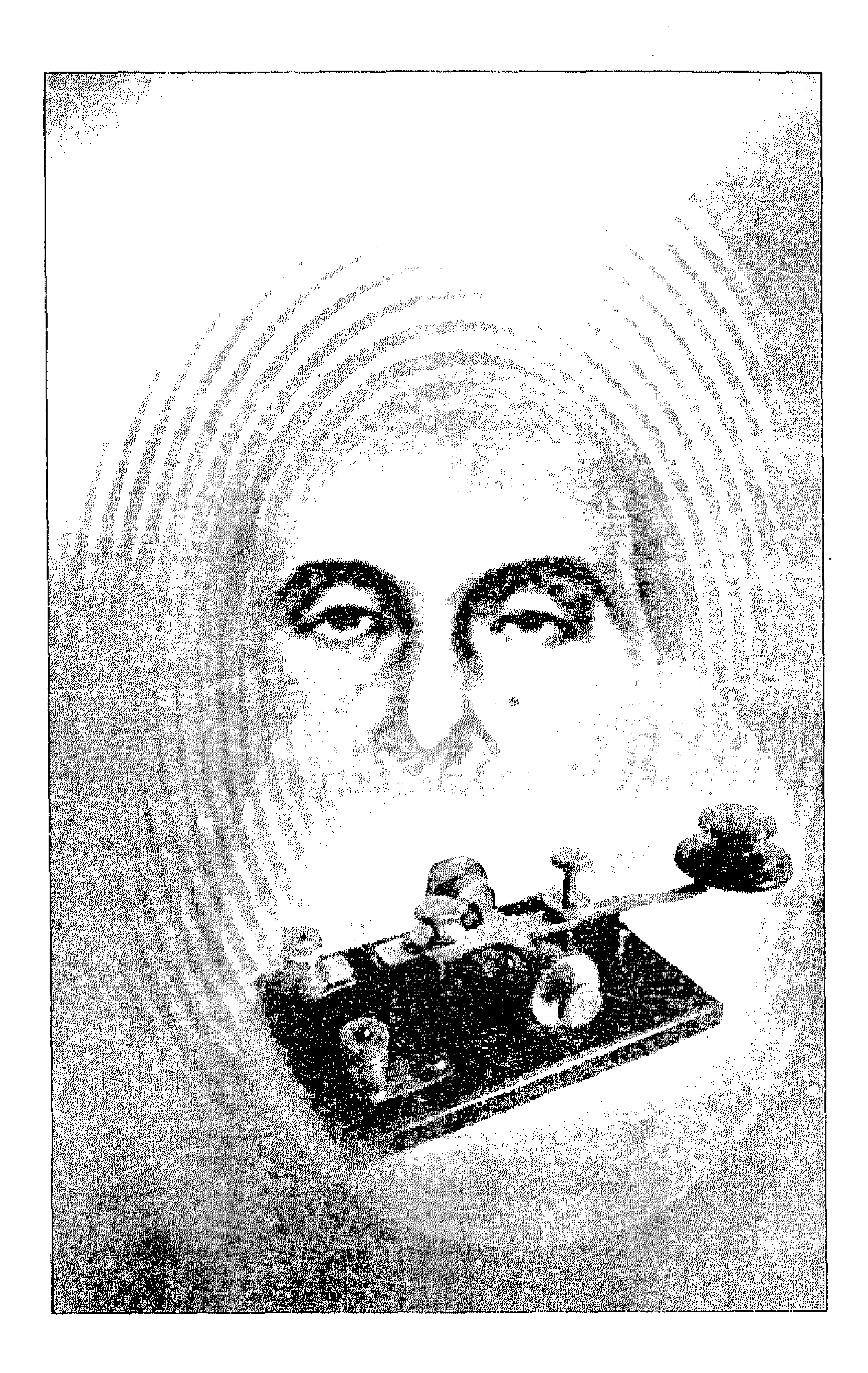
رحّب فانوس أفندي بعبد العزيز بك بعبارات متداخلة وهو ينظر إلى الفتى المصاحب له مرتابًا. ووقع ما يخشاه فانوس أفندي. فها هو عبد العزيز بك يطلب منه أن يعلم هذا الفتى مهنة التلغراف. عليه أن يراوغ، فهو لا يحب أن يزاحمه أحد في مهنته، فتظاهرَ بالموافقة، وهو يُضمر طرد الفتى في أول فرصة.

رحّب فانوس أفندي بالفتى، ودعاه إلى الجلوس. وتركه المفتش عبد العزيز على أن يعود إليه في وقت الظهيرة.

سؤال واحد فقط وجهه فانوس أفندي إلى الفتى عبد الله مصباح:

- هل أنت قريب لعبد العزيز بك؟

وبعد وقت قليل، تجمع موظفو المحطة ليشاهدوا أغرب منظر، فانوس أفندي يضحك، بل ويكاد أن يموت من الضحك، وعقب كل ضحكة يقول: «اللهم اجعله خيرًا».



وعندما عاد عبد العزيز حافظ بعد الظهر لاصطحاب عبد الله إلى المنزل، أقسم فانوس أفندي بأن عبد الله ضيفه هو شخصيًّا ولن يتركه.

وفي المساء، تحوَّل مكتب فانوس أفندي (المقفر الذي لا يدخله أحد) إلى منتدى، وتصاعدت الضحكات من الجميع إلا من هذا الفتى الأعجوبة الذي يحكي ببساطة، ويطلق النكات بهدوء، ويخطف القلوب بسهولة.

وفي الليل، أصرَّ عبد العزيز حافظ على الاستئثار بضيفه، فوافق فانوس أفندي مضطرًّا.

وفي حجرة المسافرين نام الفتى في حضن عبد العزيز، والفتى يقول له بحب: أنت أبي.

والرجل من خلال دموعه يقول: تمنيتُ لو كان لي ابن مثلك.

مرَّ أسبوع، كان كافيًا لهذا الفتى الأريب أن يعرف كل ما يتصل بمهنة التلغراف.

كما كان هذا الأسبوع كافيًا لزوجة عبد العزيز حافظ لتضيق من هذا الفتى الذي خطف زوجها منها. ولكنه لم يكن كافيًا أبدًا لعبد العزيز بك أو لفانوس أفندي أو لباقي الموظفين في أن يشبعوا من حكايات الفتى المضحكة.

وتم تعيين عبد الله موظفًا بمكتب تلغراف بنها.

وفي لحظة الوداع، احتضنه عبد العزيز حافظ، وأوصاه بالكتابة إليه وزيارته كلَّما أمكن، وأن يعامله كما يعامل الابن أباه.

وأعطاه كتاب العقد الفريد، والقرآن الكريم.

أما فانوس أفندي فإنه بكى وهو يودعه. وأهداه الإنجيل. وأخذ عليه عهدًا بأن يزوره كلما جاء إلى طنطا. وزوّده ببعض النقود.

وصل الفتى إلى مكتب تلغراف بنها. نفس الوجوه المكفهرّة، يا الله كأن الوظيفة قناع سحري يكسو الوجوه بالتجهم، ويطمس المشاعر.

ولكن عبد الله مصباح يمتلك مفتاح القلوب، كما يمتلك قدرة مذهلة على الاتصال الوجداني بالآخرين من خلال حكاياته الطريفة التي تتعامل مع مفارقات الحياة.

واشتهر مكتب بنها بموظف التلغراف الشاب الذي يضحك الجميع، ويطرب له القلب المحزون، وتحوّل مكتب تلغراف بنها إلى منتدى لكل موظفي البلدة.

عندما خلا مكان لموظف تلغراف في قصر خوشيار هانم الوالدة باشا أم الخديوي إسماعيل، تم ترشيحه بالإجماع للعمل في القصر. وبدأ فصل آخر جديد في حياة عبد الله مصباح.

فهنا وجه آخر للحياة غير الحياة التي خبرها.. وجه لامع مصقول.

شعر عبد الله مصباح بالانقباض والغربة.

هو نفس شعور السمكة المسجونة في حوض زجاجي لامع مليء بالأنوار والألوان خالٍ من الحرية. وشعر عبد الله أنه يقفز قفزات كبيرة ولكن إلى أين؟!!

الفصل الخامس

عبد الله والعمالقة

في حجرة التلغراف بالقصر، كان يجلس عبد الله مصباح، ومعه كتاب الأغاني. عندما دخل شاب طويل يمشي بكبرياء في خطوات قصيرة وقف الشاب في مدخل الحجرة ونظر إلى عبد الله متأملاً، وبادله عبد الله التأمل، وتركزت نظرات الرجل على الكتاب:

- هل هذا كتابك؟

أجابه عبد الله بعفويته المحببة:

- نعم...

- من تكون؟!

ابتسم عبد الله مصباح ساخرًا، وقال:

- أنت قادم إليّ، ولم تُلْقِ السلام، وتنظر إليّ كأني من كوكب آخر.

ابتسم الرجل، وقال متفضلاً:

- اسمي علي أبو النصر.

سأل عبد الله مندهشًا:

- علي أبو النصر... الشاعر؟

ازدادت ابتسامة الشاب وقال:

- نعم... أعظم شاعر في مصر.

قال عبد الله ببساطة وبهدوء:

- أنت شاعر الخديوي... نعم ولكن أعظم شاعر لا، وإلا فمن أكون أنا؟!

قهقه علي أبو النصر كثيرًا وقال له:

- أجِبْ أنتَ على سؤالك من تكون؟

قال عبد الله بهدوء:

- اسمي عبد الله مصباح موظف التلغراف الجديد.

جلس علي أبو النصر معه، وبدأ عبد الله في قَصّ حكاياته المصرية التي تصوِّر أعمق أعماق النفس البشرية من خلال مواقف متناقضة. تعزف على أوتار القلوب فتثير فيها البسمة، وشهقة الإعجاب.

وفي وقت الانصراف... خرج الاثنان معًا وأبو النصر يضحك كثيرًا، ويقول له:

- أنت فنان يا عبد الله لأنك ترى الأشياء بوجدان طفل شقي، وسأصحبك غدًا إلى الأزهر لحضور بعض الدروس عند الشيخ حسن الطويل.

نظر إليه عبد الله، وقال له بصوت حالم:

- أريد التعرف على الشاعر محمود سامي البارودي.

ظهر الامتعاض على وجه علي أبو النصر وقال:

- إنه شاب تركي متكبر، ووالده مدير عام مقرب من الخديوي إسماعيل.

وسأل عبد الله ببساطة مذهلة:

- وماذا يعني هذا؟!! أنا أتحدَّث عن الشاعر.

تأمَّلَهُ علي أبو النصر طويلاً وقال له:

- أنت حالم ساذج، ومن الأفضل لك أن تتعرف على مشايخ الأزهر.

•••

في رواق الأزهر جلس يستمع إلى الشيخ حسن الطويل.

الشيخ يتحدث عن سماحة الإسلام... بكلمات طيبة وشَعَرَ عبد الله أن هذا هو ما يريده، تفتحت مغاليق عقله لكلمات الشيخ.

وارتعش قلبه من الكلمات كما ترتعش الوردة طربًا من لمس الندى.

ومن الشيخ حسن الطويل عرف بأمر شيخ آخر يطوف الشرق قادمًا من أفغانستان.

فقرر أن يذهب إلى هذا الشيخ، فهو تسحره الكلمات.

في المساء، وبعد انتهاء عمله في القصر، غذّ السير إلى العتبة، ودخل المقهى. ألقى السلام وجلس يتأمل ويستمع. يتأمل عبد الله هذا الشيخ قطب الجلسة. ملابسه متسعة، وهناك بريق عجيب يشع من عينيه، كلماته سريعة متلاحقة. عينا الشيخ ترسلان نظرات تتجول في الحضور. والجميع صامتون يستمعون بشغف. يا له من جمع مكون من أعيان الريف، وطلبة الأزهر، وموظفين وأثرياء مصريين وشوام ومسيحيين ويهود.

هذا هو محمد عبده يلتصق بالشيخ، مركّزًا نظراته حابسًا أنفاسه، يُسرب الكلمات الطيبة. وهذا الشاب الطويل ذو الملامح القوية والعينين النافذتين، وجه مصري من أعماق الريف هو سعد زغلول. وهذا الفتى النحيل الطويل هو أديب إسحاق، وبجانبه صديقه سليم نقاش (صحفيان من الشام).

الشيخ الأفغاني يحكي عن مشاهداته في ديار المسلمين وينتقل جمال الدين الأفغاني ببراعة من الحكايات المنتقاة بعناية إلى قضية دينية تتصل بحرية الإنسان الذي كرَّمَهُ الله، وجعله خليفته في الأرض، وكيف أن هذا الإنسان مسئول عن قبوله للظلم، والعيش في استكانة. الله يطلب من خليفته في الأرض أن يتمثل أخلاقه ويجاهد في الوصول إلى القوة والأمانة والصدق والحرية والعمل والإنجاز، ومقاومة الظلم، والدعوة للعدل والحق وابتغاء وجه الله في كل عمل، والتحرر من الخوف من أي إنسان أو سلطان.

والشيخ جمال الدين الأفغاني يؤيد كلامه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وعبد الله مصباح يشعر بأنه يرتفع إلى آفاق السماء على جناح كلمات الشيخ. والشيخ غزير المعلومات، واسع الثقافة، يحذق فن الكلام، ومتعمق في تاريخ وفلسفة الإسلام.

توقف الكلام قليلاً عند توقف عربة «دوكار» يجرها حصان أبيض قوي. ونزل من العربة شاب جميل الطلعة، له شارب

معقوف وحلته موشاة بخيوط حريرية، ورائحة المسك تسبق خطواته القصيرة المتأنقة. وهمس أحدهم هذا هو محمود سامي البارودي، فنظر إليه عبد الله مصباح متطلعًا، وابتسم لنفسه، وهو يشبه البارودي بالطاووس.

جلس البارودي يستمع وجمال الدين يحلق بالجمع مرة أخرى في أجواء الكرامة الإنسانية، والإحساس بالذات، واحترام النفس.

ما لبث أن اضطرب الجمع مرة أخرى لحضور عربة ملكية ودارت الهمسات، وتطلعت النظرات إلى الأمير توفيق. وقف الجميع يرحبون به.

الشاب هادئ خجول، يبتسم كأنه يعتذر، يحيي برقة مغلفة بكبرياء. وانتقى له مجلسًا بجانب البارودي.

عاد جمال الدين الأفغاني يحلق بالجمع مرة أخرى، وهو يحكي لهم قصة السلطان قطز الذي حارب التتار وانتصر عليهم.

هنا سأله عبد الله مصباح:

- بمن حارب قطز يا سيدي؟

كل النظرات تركزت على عبد الله مصباح..

أجابه جمال الدين بدهشة:

- بالمماليك طبعًا... ألا تعرف؟!!

قابل عبد الله مصباح دهشة الأفغاني بهدوء، وقال:

- هل كل جنوده كانوا من المماليك؟!!

أجابه جمال الدين الأفغاني بصوت قاطع مليء باليقين:

نعم... فالمصريون لا دور لهم في التاريخ وأمرهم غريب... فهم دائما كالحصاة الملقاة في الصحراء، وعرضة دائما للمستعمرين.

ساد الصمت قليلا، وكان الجميع يستوعبون ويدرسون كلام الشيخ، وهم يشعرون بالمهانة.

ولدهشة الجميع ارتفع صوت عبد الله مصباح معترضا، وهو يقول:

- أخطأت يا مولانا.

ماذا؟! هل هناك من يتجرأ بتخطئة الأفغاني.

ساد الصمت المشحون بالتوتر الجلسة، وسددت النظرات المشفقة إلى عبد الله مصباح. طالبته بعض الهمسات المرتعشة بالاعتذار لمولانا القطب الكبير. لكن عبد الله مصباح، قال بهدوء وبدون انفعال:

- كيف حكمت يا مولانا على المصريين بأنهم لا شيء؟!

ابتسم جمال الدين ساخرا، ومستهينًا بمحدثه.

وقال بنفس الأسلوب التقريري، واللهجة اليقينية:

- من التاريخ يا بني.

عادت النظرات لتلتقي على وجه عبد الله مصباح، ولاحقته الهمسات المرتعشة، بل ومد بعضهم أيديهم لغمزه. لكن عبد الله مصباح، قال بصوت هادئ:

- مصر... تاريخها يرجع إلى أكثر من ٥٠٠٠ سنة وقامت بها أول حضارة في العالم. وإذا حسبنا السنوات التي استعمرت فيها بالنسبة لعمرها، لوجدنا هذه النسبة أقل نسبة في العالم.

شعرت الصدور بالراحة، وامتلأت النظرات بالعطف وانطلقت الهمسات بالتشجيع.

ابتسم جمال الدين الأفغاني مشجعًا، ولم يصمت عبد الله مصباح، وانطلق كالنهر الثائر قائلاً:

- هناك شيء يا مولانا.

حدقت النظرات فيه بقوة

وواصل عبد الله كلامه قائلاً:

- ما هو مفهوم الوطن؟

هل تعتبر الوطن هو المكان الذي ولد فيه الإنسان، هو وآباؤه وأجداده؟ أم الوطن هو الذي يتفاعل معه الإنسان ويحقق فيه ذاته وطموحه ويحقق أحلامه؟

تساءل الجميع: من يكون هذا الشاب؟ وأين كان؟ وما هو موقعه من المجتمع؟ كيف لم يسمعوا به؟

أما عبد الله مصباح فإنه واصل كلامه:

- اسمع يا مولانا.. هل تعتبر قطز والمماليك مصريين أم غزاة؟ مع العلم بأن الأتراك كانوا يطلقون على المماليك لفظ مصراوية. وهل تعتبر الغزو الإسلامي لمصر فتحا أو استعمارًا؟! وهل تعتبر الأتراك والجراكسة والشوام غُزَاةً يجب مقاومتهم؟

أم هم في ديارهم... ديار المسلمين عملاً بقول الله جل شأنه «إنَّ هذهِ أمَّتُكم أمَّةً واحدة». وحديثك اليوم عن الاستعمار.. هل يوجد استعمار لمصر؟ أم هو نوع من قوة متحكمة مستبدة من نفس الوطن تذل الجميع؟

وتنفس عبد الله مصباح بعمق كأنه أفرغ ثورة مكبوتة ثم قال، وقد هدأ صوته كثيرًا:

- يا مولانا... المشكلة هي معرفة المفاهيم أولاً. مفاهيم التعليم... والثقافة... والوطن... المشكلة هي مشكلة وطن يبحث عن هوية.

وصمت عبد الله، والجميع في ذهول.

إن التيارات التي أثارها عبد الله... أحدثت تشتتًا كبيرًا... لكن- وفجأة- دوَّى تصفيق الإعجاب.

عندما صفق الأفغاني له صفق الجميع... تخلصًا من الحيرة التي انتابتهم.

ثم توقف الأفغاني، ونظر إلى عبد الله مصباح وسأله:

- ما اسمك يا بني؟

- عبد الله مصباح.

أشار الأفغاني نحوه، وهو يقول:

- فلنفكر جميعًا في كل ما قاله عبد الله، وليكن حديثنا في كل الأيام القادمة عما أثاره هذا الشاب النجيب.

الفصل السادس

عبد الله والبارودي

عندما همّ عبد الله مصباح بالانصراف وجد كثيرا من الرواد يحيطون به، ويريدون التحدث معه، ومعرفة الفتى المصري الفخور بوطنه.

وتنبه عبد الله على يد توضع على كتفه. فنظر إلى صاحبها فوجد الأمير توفيق يبتسم إليه تودّدًا ويصافحه بيد ناعمة، ويقول له هامسًا:

- إني معك في كل ما قلت، وأحب أن أراك كثيرًا.

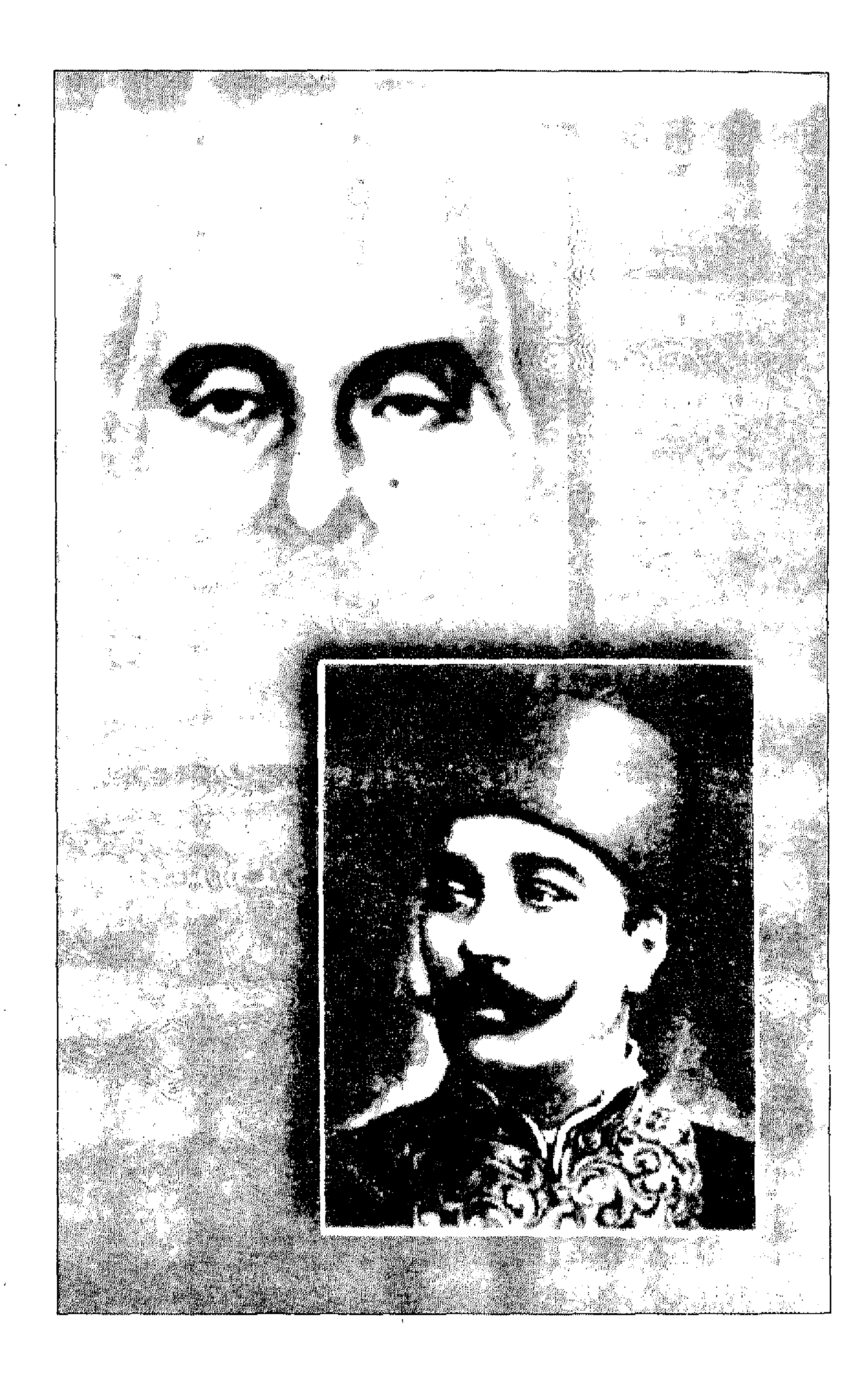
وانصرف قبل أن يسمع أي إجابة، وكأنه يتبرأ مما قال.

أما البارودي فإنه تقدم إليه، وهو ممتلئ فتوة وجلالاً بوجهه الصبوح، وشاربه المعقوف وكأنه رمز للقوة والمجد.

هز البارودي يد عبد الله بقوة، ودعاه بحرارة للانصراف معه.

ركب عبد الله الدوكار بجوار محمود سامي البارودي. التفت إليه البارودي، وابتسم إعجابًا وتعجبا.

هذا الشاب النحيل الهزيل المصري شديد المصرية، كيف امتلك كل هذا الحس الوطني؟! وهذه الشجاعة الأدبية؟! والثقافة العميقة؟!



وتحول الإعجاب إلى أسئلة متلاحقة:

- من تكون؟ وماذا تعمل؟ وكيف لم أرَكَ من قبل؟

أجابه عبد الله:

اسمي عبد الله مصباح، وأعمل في قصر الوالدة باشا.

زادت دهشة البارودي وسأله:

- في قصر الوالدة باشا؟!

ماذا تعمل؟!... أغا؟!

ضحك عبد الله طويلاً، وقال:

- كلنا أغوات.

لم يُخْفِ البارودي امتعاضه. لاحظ عبد الله ما ارتسم على وجه البارودي، فأسرع بالقول:

- أنا موظف تلغراف.. وليس أغا.

ما زال العجب يملأ صدر البارودي، فهو لا يتصور أن مصريًّا في قصر والدة الخديوي اسماعيل، فسأله ليتأكد: تركي؟

أجابه عبد الله من خلال ضحك ساخر:

- وهل هذه بشرة تركي؟!

سأل البارودي، وهو لا يصدق:

- فلاح؟!

انتهت ضحكات عبد الله، ونظر إلى البارودي بعمق ليرى إن كان يسخر ويستهين به، أم أنه فقط يتساءل، ثم أجاب بكل ثقة:

- أنتم تسمون كل مصري حقيقي فلاحًا، لاقتران المصري بالأرض، وتعمق جذوره في القرى، وبهذا المفهوم أنا فلاح... وليَ الفخر.

شعر البارودي بضيق، وببعض التوتر، فقال بصوت منفعل:

- لماذا لا تتحدث بشكل طبيعي مثل كل الناس؟!

أجابه عبد الله بلهجة لا تخلو من الود وأيضًا لا تخلو من الفخر:

- وهل أنا مثل كل الناس؟!

ثم نظر إلى البارودي، وقال له مداهنًا:

- وهل أنت مثل كل الناس؟! أنت شاعر كبير.

ابتسم البارودي، وتبدد ضيقه وبدأ يشعر بالود لصاحبه، وسأله:

- هل قرأت لي؟

وبدأ عبد الله في إلقاء شعر البارودي، وجسَّد إلقاءه بالحركة والتعبير، ولَوَّن صوته بألوان من المشاعر حسب ما يلقى.

واستمع البارودي إليه بانبهار. وكان قد سمع شعره كثيرًا من آخرين، ولكن لم يُلْقِه أحدٌ أبدًا بطريقة مجسدة مثل هذا الشاب النجيب.

طرب البارودي كثيرًا. ووضع يده على كتف عبد الله وسأله متوددًا:

- وهل أنت شاعر؟

أجابه عبد الله بتلقائية آسرة:

نعم... شاعر بجوع.

ضحك البارودي، وقهقه، حتى أن السائق نظر متعجبًا.

●●●

وفي قصر البارودي الفاخر، جلس عبد الله على مائدة الطعام يلتهم كل ما يقدم إليه، والبارودي ينظر إليه سعيدًا ويقدم له المزيد، وعبد الله يأكل.

وقد أسقط كل الحواجز بينه وبين البارودي، وأخذ يحكي له قصص تصعلكه في القرى، وصداقته لأحمد جودة الأعرج، وكيف تلقى الضربات معه، وحُب أحمد له، وتبرم الأم منه خوفًا من أن يشاركها أكل المش الممتلئ بالدود وصداقته للحلاق وللمأذون وجلوسه في الأجران وعلى شط الترع وسمره بين الفلاحين على المصاطب.

والبارودي لا يكاد يمسك نفسه من الضحك. فهذا شاب تطيب الحياة معه، ويخترق كل الحواجز ويصنع عالمًا سحريًا، وأدواته- ويا للعجب- بؤس الناس.

وأصر البارودي على أن ينام عبد الله معه في حجرة نومه وعلى سريره وفي حضنه.

ولكنهما لم يناما، فاللحظات الجميلة في الحياة قليلة. وهذا الشاب يلون اللحظات بالجمال والسحر والدفء والود. وعبد الله يحكي عن الشعراء الصعاليك، ثم ينتقل إلى المتنبي. ثم ألقى أبياتًا من نظمه هو شخصيًا. وفوجئ البارودي بأن عبد الله شاعر كبير.

وتوجا ليلتهما الدافئة بالود، العامرة بالسعادة. توّجا هذه الليلة العجيبة بأنْ أخذه البارودي إلى مكتبته، وأطلعه على آلاف الكتب والمخطوطات النادرة.

انصرف عبد الله صباحًا في دوكار البارودي ومعه كمية كبيرة من الكتب والمخطوطات والدواوين الشعرية.

●●●

حرص عبد الله مصباح أن يذهب إلى عمله في قصر الوالدة باشا بالرغم من سهره حتى الصباح. وجاءه علي أبو النصر ليطلعه على آخر ما كتب، فوجئ بشحوب وجه عبد الله فسأله:

- ما هذا الشحوب الذي يكسو وجهك؟!

ابتسم عبد الله ابتسامة عذبة، وهو يتذكر ليلة أمس وسأل علي أبو النصر مازحًا:

- هل تعرف مع من كنت ساهرًا حتى الصباح؟

أجابه علي أبو النصر باستهانة:

- مع من؟! هل حظيت بمقابلة رئيس الأغوات؟!

قال عبد الله بصوت مرح يقطر عذوبة:

- كنت مع البارودي، وأكلت على مائدته طعامًا طيبًا من صنع المطبخ التركي، ونمت في سريره الفاخر وأخذت بعض كتبه ودواوين شعره من مكتبته. والأهم أننا تحادثنا حتى الصباح. خطأ.. لم نتحدث... بل تناجينا وتعانقت الأرواح. كانت ليلة.. من أجمل ليالي العمر.

صمت أبو النصر طويلاً، ثم نظر إليه وقال:

- ما زلت غارقًا في أحلامك.

سأبحث عن طريقة لأعرفك بالبارودي، إن كان هذا يشفيك مما بك.

ضحك عبد الله طربًا وقال:

- أنت لا تصدق، حسنًا سأعرفك أنا به إن أحببت.

امتلأ أبو النصر بإحساس عدواني ضد عبد الله، فقد شعر أن هذا الشاب يسخر منه، ولوّن الغضب صوته، وهو يقول:

- لا أحب هذه الطريقة في الكلام.

وفوجئ عبد الله بغضب علي أبو النصر. وفي هذه اللحظة دخل أحد الخدم، واتجه إلى عبد الله قائلاً:

- صباح الخير يا أبو الأنوار.

تهللت أسارير عبد الله في وجه الخادم وهو يرد التحية: صباحك معطر بماء الزير.

ضحك الخادم وأعطاه ورقة.

وأبو النصر ينظر إلى عبد الله والخادم متعجبًا من هذا الشاب الذي يقتحم كل الناس ببساطة.

ناول عبد الله الورقة إلى أبو النصر، فاتسعت عيناه دهشة. فالورقة تحية ودعوة شخصية من البارودي لعبد الله ليحضر ندوته التي يقيمها في قصره أسبوعيًا.

أبو النصر لم يجد شيئًا يقوله أو يعلق به عما رآه سوى:

- لو سمعك الخديوي مرة واحدة لاتخذك نديمًا له.

قالها على سبيل المجاملة، ولكنه فوجئ بعبد الله يقول له بنفس البساطة التي تميزه:

- أمس، قال لي الأمير توفيق أحب أن أراك كثيرًا.

صرخ علي أبو النصر غير مصدق:

- مَنْ؟

بتلقائية وببساطة:

- الأمير توفيق.

جلس علي أبو النصر على أقرب كرسي. لم يستطع تحمل زوبعة الانفعالات التي ثارات داخل صدره، وقال بصوت ضعيف أنهكه الانفعال:

- أرجوك لا تهزل.

- أنا لا أهزل.

نظراته إليه فيها رجاء وفيها حيرة، وقال له:

- أرجوك احلك لي.

قص عبد الله ما حدث في مقهى العتبة. وعندما انتهى من سرد قصته. كان أبو النصر قد وصل إلى قناعة بأن عبد الله شخص خطر وحصان جامح. فقال له وكأنه يعاتبه:

- فجّرت كل الأسئلة، وأثَرت كل الناس، أنت خطر متحرك. ثم قال وهو يتنفس بصعوبة:

هل استطعت معارضة جمال الدين الأفغاني؟

أجابه عبد الله بعفوية غريبة:

- وماذا في ذلك؟

ارتفع صوت علي أبو النصر فجأة، وكأنه يحتج:

- حصان جامح... أنا آسف.

وقام أبو النصر وخرج مسرعًا.

وعبد الله مصباح لا يعرف لماذا انصرف أبو النصر، ولماذا هو آسف.

ولكن أبو النصر كان يرى المستقبل، فهذا الشاب الجامح، لن يتركه أحد يحطم حواجز المجتمع هكذا ببساطة، وكلامه من النوع الخطر الذي ينسف كل رموز القمة، لذلك لم يندهش أبو النصر عندما سمع بطرد عبد الله من القصر، فقد كان عبد الله جالسا في حجرة التلغراف. يحكي للخدم وبعض أفراد الحاشية،

والجميع يضحكون ويقهقهون.

عندما دخل خليل أغا رئيس أغوات القصر، صمت الجميع، وهَبَّ الخدم مذعورين، وهرولوا منصرفين إلا عبد الله فإنه واجه نظرات خليل أغا بقوة، بل وسخر منه قائلاً:

- أهلاً بهادم اللذات ومفرق الجماعات.

انفعل خليل أغا، واحمرَّ وجهه غضبًا، وقال:

- ماذا تقول؟!

ثم غمغم:

- خرسيس برسيس دقن العنزة.

لم يهتز عبد الله، ولم يبال وسأله:

- ماذا تريد يا طربوش أفندي؟

انفجر خليل أغا من هذا الموظف الذي يسخر من رئيسه وأين؟ في قصر أم الخديوي! فقال له منبهًا ومحذرًا ومؤنبًا:

- أنا بك يا حمار. خذ أرسل هذا التلغراف يا بجم.

نظر إليه عبد الله متحديًا، وقال:

- سأرسله يا خروف أفندي.

برطم خليل أغا مغتاظًا، وهو يقول:

- مرة أخرى تقول أفندي

قلت لك إني بك يا غبي.

ضحك عبد الله وهو يقول له:

- أنا قلت خروف أفندي، لماذا رضيت بالخروف ورفضت الأفندي؟!

ولم يتحمل خليل أغا هذا الموظف الوقح، وأمر حاشيته بضربه بالسياط، وفصله من القصر، بل وأنذره بالسجن والموت إن رآه في المحروسة.

•••

قهقه البارودي وهو يستمع للنديم. إنه يسخر من آلامه، ويحكي كيف ضُرب، ولا يخفي شيئًا.

سأله البارودي محاولاً كشف أعماق عبد الله.

- ألم تشعر بالإهانة؟!

أجابه الساخر الأبدي:

- وهل هذا سؤال؟!

طبعًا شعرت بالسرور البالغ، وأنا أتلقى نفحات الأغا الخروف.

قال البارودي بصوت هادئ وعميق:

- سأدبر لك عملاً في قصري.

وفوجئ برد عبد الله الذي قال له في حسم:

- لن أعمل في قصور مرة أخرى، فأنا لم أخلق لها.

سأله البارودي: وماذا ستفعل؟

الفصل السابع
الأدباتي والباشا

هو على موعد مع مولد السيد البدوي، ففي الزحام ينسى نفسه، وبين الفلاحين يشعر بالانتماء.

جلس على مقهى، وطلب قهوة مضبوط، وأخذ يراقب الخلق.

يا لله.. الصورة كما هي كأنها صورة فوتوغرافية ثابتة. وكأن الزمن متوقف.

ها هو الحلاق محمد معبد في خيمته يحلق للفلاح ببيضة. ويقوم بعمليات الختان للأطفال بعدد من البيض ومشنة عيش بتاو.

رآه محمد معبد، فترك ما في يده، وجاء مسرعًا إليه لأنه كان قدم الخير له.

وتوقف محمد معبد قريبًا منه، شيء ما جعله يتوقف، فعبد الله تغير، ملابسه نظيفة وأنيقة، جلسته فيها كبرياء، عمامته مقلوظة، مركوبه نظيف لامع.

ياه !! كأنه أفندي حكومة.

هكذا همس محمد معبد لنفسه. وهمّ بالتراجع لولا أن تنبه عبد الله إليه، فناداه مهللاً، وقام مرحبًا، واحتضنه بقوة.

محمد معبد حفنة من ذكريات الصبا، ودليل حي على أيام دافئة، وجلس الاثنان يتناولان القهوة، ويسترجعان ذكريات المولد والقرية والمصطبة والترعة والمصلية وشجرة الجميز وشجرة التين والحمير والماعز والجرن والبلح.

ضحك الاثنان كثيرًا، وطرب القلب لذكريات الصبا المندّاة بالحب والتسامح والألفة.

ولاحظ عبد الله أن الزمن ترك خطوطًا عميقة في جبين الأسطى وأخذ من فمه عددًا من الأسنان.

فوجئ محمد معبد بتأمل عبد الله له، فأراد أن يعود إلى نبع الذكريات، فقال له، وهو يرتشف القهوة:

- ألا تريد أكلة بيض ومش ومخلل وبتاو؟

أجابه عبد الله بفرح طفولي:

- أريد.

تهلل وجه محمد معبد طربًا، فها هو مساعده يعود إليه بعد فراق خمسة عشر عامًا.

وقبل أن ينصرف الاثنان، جاء أدباتي يجر خلفه حمارًا يضع في خرجه عيش البتاو الذي يجود به الفلاحون، ويلبس طرطورًا له شراشيب، ويطرب الفلاحين لكي يجودوا عليه.

كان يهز الطرطور، ويدق نغمات نحاسية بطارتين من النحاس الأصفر، وينشد شعره الحلمنتيشي.

وقف الأدباتي أمام عبد الله. وقد خمن أنه على يسارٍ من الرزق بسبب مظهره المتميز.

أرسل نغماته النحاسية. وهز طرطوره، وتمايل بجسده وأنشد بصوت عجيب.. صوت يذوب فيه الفرح وأيضا يذوب فيه الحزن في وقت واحد. فلا نعرف إن كان حزينا أو فرحا

قال:

شرم برم والحال نعبان
ومراتي ولدت في الدكان
سبع قطط والباقي فران

تجمع الفلاحون والفلاحات والأطفال. خرج صبي المقهى وطالب الجمع بالانصراف أو شرب ما تيسر من المقهى. حتى يسمح لهم بالفرجة.

رَدّ عبد الله بسرعة يصف حاله، وقلة ما في اليد:

شرم برم والحال تعبان
وأخوك موظف غلبان
بيته فاضي ومالوش بيبان

ضحك صبي المقهى من هذا الأفندي الذي يقلد الأدباتي وضحك الفلاحون وهم يرون أعجوبة من أعاجيب الزمن. أفندي وأدباتي.

أما الأدباتي فإنه لم يصدق ما يسمع وما يرى ورأى أن يستمر في الإنشاد لعل وعسى. فقال:

أنعـم بقرشك يـا جنـدي

والا اكسينا أمَّال يا أفندي

لاحسن أنا وحياتك عندي

بقى لي شهرين طوال جعان

شرم بـرم والحـال تعبان

وتطلعت وجوه الفلاحين والأطفال ومحمد معبد إلى عبد الله منتظرين، هـل يستمر، أم يصمت فتنتهي الفرجة ولا تكتمل الفرحة والسرور الذي انبعث منهم بسبب هذا الأفندي الأدباتي.

ولم يخيب عبد الله توقعاتهم فأنشد:

أمـا الفلوس أنـا ماديش

وإن قلت أنـا مـا امشيش

يـطــلـع عــلـيّ تلطيش

وأقـوم أملص لـك الودان

شـرم بـرم والحـال تعبان

ضحك الفلاحون طربًا، وصفقوا مشجعين، وزغردت فلاحة، ونشط صبي المقهى في بيع مشروباته.

ضحك فلاح عجوز خالي الأسنان، وهو يرى أفنديًا محترمًا يقلد الأدباتي.

والمساجلة حامية بين عبد الله والأدباتي. الأدباتي ينشد مما

يحفظ، وعبد الله يرتجل ويرد. وصاحب المقهى سعيد، ومحمد معبد يضحك ويقهقه ويمني نفسه.

وبعد ساعتين، انصرف الأدباتي يائسًا من الأفندي، ولكنه أخذ كثيرًا من الفلاحين.

كما انصرف محمد معبد سعيدًا.

وجلس عبد الله مفكرًا.

جاء صاحب المقهى، وجلس بجانبه. ووضع أمامه كمية من النقود، وقال له مرحبًا ومحرجًا:

- ما رأيك لو تجيء كل يوم، وستأخذ مبلغًا من المال، هذا بجانب الطعام والشراب.

سأل عبد الله بتلقائية:

- والمبيت؟

ضحك صاحب المقهى، وقال بأريحية:

- في المقهى متسع لك

وفقد محمد معبد صبيه.

●●●

لم ينته هذا اليوم العجيب عند هذا الحدث، فقد وقف دوكار أمام المقهى.

نزل منه موظف فخم منتفخ يشعر بذاته كثيرًا. اتجه إلى عبد الله، وقال بلهجة آمرة متغطرسة:

- شاهين باشا كنج يريدك.

بسرعة أجابه عبد الله بكبرياء مبالغ فيه:

- وأنا لا أريده.

اصاب الارتباك الحضور، وسرت الهمهمة والغمغمة. انزعج صاحب المقهى. وهَبَّ مذعوراً، وقال:

- ماذا تقول يا مجنون؟! انه مدير الوجه البحري.

قال عبد الله ساخراً:

- سأذهب إلى الوجه القبلي.

قال الموظف المنتفخ، وقد انكمش قليلاً:

- ولماذا؟! .

أجابه عبد الله بلهجة تقريع وتأنيب:

- لأنك لم تبدأ بالسلام، ووجهت كلامك إليّ بصيغة الأمر.

ما هذا إنه أمر عجيب خارق للعادة! ماذا يقول هذا الشاب؟!! هل هناك من يفكر هكذا؟!

إن الناس تموت خوفا عند سماع اسم شاهين باشا كنج. ولكن لا بأس، فهو يجب أن يعود بهذا الأفندي الأعجوبة، وإلاّ واجه هو شخصيا غضب شاهين باشا كنج، فقال متلطفا:

- إني أعتذر، وها أنا أبدأ السلام. السلام عليكم.

ابتسم عبد الله

ضرب صاحب المقهى كفا بكف تعجبا

فغَرَ كثيرٌ من الفلاحين أفواههم غير مصدقين.

أما محمد معبد فقد حمد ربه أن عبد الله لم يعمل معه. وكانت حكاية أخرى يحكيها الفلاحون على المصاطب عن الأفندي الأعجوبة الذي ساجل الأدباتي لمدة ساعتين ولم يهتم بطلب مدير المديرية ذات نفسه.

•••

شاهين باشا كنج، كان الملل يخنق أيامه، فكل الناس تطالعه بوجه واحد، وجه كله نفاق وخوف وتزلف.

لم يقابل إنسانًا حقيقيًّا، إنسانًا له مشاعر طبيعية، إنسانًا يتعامل بدون خوف أو نفاق.

لذلك عندما سمع عن الأفندي أو الشيخ الذي ساجل الأدباتي، أدرك أن هناك رجلاً غير عادي في مديريته، فقرر أن يراه، وأرسل إليه (الدوكار).

وازداد شاهين باشا كنج تعجبًا عندما أسر إليه الموظف بما حدث من الرجل.

أمر الباشا أن يدخل الرجل إليه فورًا. وفوجئ عندما رأى شابًا نحيلاً يخب في الجبة والقفطان.

ألقى عبد الله التحية بصوت هادئ:

السلام عليكم

لاحظ المدير أن الرجل لم يذكر كلمة يا باشا عقب السلام.

وغمغم المدير برد التحية.

لم يسمع عبد الله الرد بوضوح.

تراجع لينصرف.

نادى عليه شاهين باشا بقوة:

- تعال هنا.

وقف عبد الله في مكانه جامدًا.

سأله شاهين بصوت جهوري:

- لماذا تنصرف؟

أجابه عبد الله بثبات، وصوت واضح النبرات:

- بسم الله الرحمن الرحيم «إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها» صدق الله العظيم

وأنت لم ترد

صمت شاهين باشا قليلا ثم أجاب:

- أنا رديت.

تنبه الباشا إلى أنه وضع في موضع المساءلة فشعر بضيق بالغ من هذا القراقوز العجيب.

جلس عبد الله على مقعد وثير قبل أن يسمح له شاهين. حملق شاهين فيه مستنكرا، وامتلأ صدره بمشاعر نافرة من هذا الشاب.

بدأ عبد الله الكلام قائلاً:

- استدعيتني يا باشا لأنك سمعت بما حدث بيني وبين الأدباتي... أليس كذلك؟

أجابه شاهين مغمغمًا:

- بلى.

أشار عبد الله إلى أحد المقاعد، وقال:

- اجلس لأحكي لك ما حدث.

جلس شاهين بكبرياء، وهو يضمر طرده في أقرب وقت خاصة إن لم ينجح في قول شيء طريف يُبدّد السأم والكدر الذي يسري في جوانحه.

وقص عبد الله ما حدث بالتفصيل. ووقف يجسد موقف الأدباتي، وقلد حركاته.

إن الفتى يقوم بدور فرقة مسرحية كاملة يجسد جميع الأدوار حتى أدوار الجماهير. يسرد ويجسد بالصوت الذي يرتفع وينخفض ويهمس ويهدر ويجلجل.

وبالحركة الطبيعية اللينة، وبالنظرات المعبرة عن كل الأحوال من سرور، وحزن، وخيبة، ثم فرح ويأس، ثم أمل ورجاء، وعودة إلى اليأس والقنوط والاستسلام.

واندمج الباشا في المتابعة، وتبخرت كل مشاعر الضيق وعانق وجدانه.. وجدان عبد الله، وانفتح قلبه لتلقى رحيق ساحر.

تخلى الباشا عن وقاره. ابتسم... ثم ضحك... ثم قهقه. وبدأ جسده ينطوي وينفرد ويصفق بيديه، ودمعت عيناه ووقف وهو يضحك، واحتضن عبد الله وهو يلعنه من فرط الإعجاب، قائلاً «ما هذا يخرب بيتك».

وعبد الله يرد عليه ضاحكًا:

- هذا إذا كان لي بيت.

تنبه الباشا لنفسه، وحاول أن يعود إلى هيبته، فقرر أن يضع الشاب في مأزق ليثأر منه، وقال له:

- أنت تثق كثيرًا في نفسك، أليس كذلك؟

صمت عبد الله، وتوقف عن الحكي، وجلس قائلاً:

- بلى.

جلس شاهين باشا، ووضع ساقًا فوق ساق قائلاً:

- ما رأيك في مباراة مع جمع من الأدباتية، وإذا فزت تحصل على عشرين جنيهًا، وتصبح نديمًا لي.

ثم صمت، ونظر إلى عبد الله، وقال مهددًا:

- واذا لم تفز أجلدك عشرين جلدة.

قال عبد الله بدون تفكير:

- موافق.

قال الباشا: حسنًا سيكون ميعادنا بعد أسبوع، وستمكث معي هنا في القصر. نديمًا لي.

الفصل الثامن
موقعة الأدباتية

سار موكب إعلامي في شوارع المدينة. اثنان بقرعان الطبل الكبير، ومناد فوق حمار ينادي:

- يا عباد الله وحدوا الله

شاهين باشا كنج مدير المديرية

يدعو الجميع لمشاهدة السجال

بين الأدباتية وبين الشاب البدعة

والأفندي المرتاح

الشيخ عبد الله أفندي مصباح

ذهبت الرسل والدعوات إلى الأعيان والباشاوات والعمد والأفندية تدعوهم إلى شيء طريف وفرجة من الزمن القديم.

تنادي الأدباتية، وذهبوا إلى أقطاب الفن، حتى من اعتزل منهم بسبب العمر.

وتساءلوا عن هذا الأدباتي الجديد الذي ظهر ولم يعرفوا عنه شيئًا. وذهلوا عندما عرفوا أنه أفندي أو شيخ وليس شحاذًا.

ماذا حدث في الدنيا؟!

واطمأنوا، وحشدوا له الأفذاذ في الصنعة.

ذهبوا إلى الشيخ بصلة وهو العبقري ورئيس طائفة الأدباتية، فاعتذر بسبب ضعف الشيخوخة وطمأنهم وشجعهم، وأدلى لهم ببعض النصائح.

وفي اليوم الموعود، أقيم سرادق ضخم أمام قصر الباشا. وجلس شاهين باشا في صدر السرادق في مكان مرتفع ومعه عدد من الباشوات والبكوات.

وفي صف ثان جلس كبار الموظفين والعمد، وأمامهم عدد من الطاولات المتلاصقة مكونة شيئًا أشبه بالمسرح.. جلس على جانب منه عبد الله وفي الطرف الآخر تجمع عدد من الأدباتية، والسرادق مليء ومزدحم، وفي جوانب السرادق وأمامه وخلفه، طوفان من البشر.

جاء الجميع للفرجة والأكل والشراب. وكان عبد العزيز حافظ جالسًا مع الأفندية. جاء ليرى صديقه، وليشاهد ما يحدث، وهو مشفق على صديقه العجيب.

حتى الشيخ العشري جاء من الإسكندرية ليرى تلميذه النجيب. أعلن المدير بنفسه بأنه في حالة فوز عبد الله أفندي مصباح فسيمنحه عشرين جنيهًا كاملة، بل وسيدعه يضرب الأدباتية كل واحد عشرين عصا.

صفق المتجمعون طربًا، وصفق بعضهم. لكن شاهين باشا أشار لهم بالتوقف ثم أكمل كلامه: وفي حالة فوز الأدباتية سيأخذ كل أدباتي خمسة جنيهات وسيضرب عبد الله عشرين عصا.

ضحك المتجمعون، وهم يتخيلون الأفندي تحت ضرب العصا.

وصمت الجميع فجأة واشرأبت الأعناق، عندما رفع شاهين باشا يده معلنًا بدأ السجال.

قام أدباتي شاب وأنشد الافتتاحية، ثم أخذ يهجو عبد الله مصباح ويذم فيه، ويهوِّن من شأنه، وجلس.

قام عبد الله.. وبدأ بالافتتاحية، وردَّ ساخرًا على الأدباتي ولقبه بلقب عجورة، فضحك المجتمعون وصفقوا.

وقبل أن ينتهي عبد الله وقف الأدباتية جميعًا أمامه، والتقط أدباتي آخر الخيط، وبدأ الإنشاد وهجو عبد الله وفعل فيه عبد الله ما فعل في سابقه، وأطلق عليه لقب فجلة.

والثالث والرابع..

وبدأ الخوف يسيطر على الأدباتية، فيطلقون بعضًا مما حفظوا، لكن عبد الله أخذهم بعيدًا، وهو يرتجل ويبتدع، وتلبسه شيطان لا يهدأ ولا يصمت.

وأصبحت ملاحقته ضربًا من المستحيل. فتفجرت الدموع من مآقي الأدباتية.

أدرك الأدباتيةُ الهاويةَ التي حفرها هذا الشيطان لهم.

لاحظ شاهين باشا ما حلّ بالأدباتية، فأمر بالاستراحة لتقديم العشاء، وبعد ذلك العودة للمساجلة.

تنفس الأدباتية الصعداء، وتجمَّعوا للمشاورة في أمر هذا الشيطان الذي يوشك أن يُلحق بهم الدمار.

استقر رأيهم على احضار الشيخ بصلة رئيس طائفة الادبانية.
أسروا برغبتهم إلى شاهين باشا. فسألهم:
- وهل يستطيع هزيمة هذا الداهية؟
- ماذا تقول؟! إنه عبقري الصنعة
- إن الشيخ بصلة شيء مختلف.
- الشيخ بصلة يتكلم شعرا
- الشيخ بصلة يتعاطى الفن منذ ٥٠ عاما.

أمر شاهين باشا بإحضار الشيخ بصلة على وجه السرعة لتكتمل الفرجة، ويحل السرور.

وفي الاستراحة تقدم عبد العزيز حافظ إلى صديقه. احتضنه عبد الله، وقبله باشتياق.

أيضًا استقبل عبد الله أستاذه الشيخ العشري. الذي قدم له التهنئة قائلاً:
- لقد أصبحت نديمًا للباشا يا عبد الله.

وفي وسط فيضان البشر لمح عبد الله أصدقاء آخرين أعزاء، لمح أحمد جودة الأعرج، ومحمد خليل المأذون، ومحمد معبد الحلاق يقفون وسط الفلاحين ويشيرون اليه

ميز عبد الله ملامحهم. وأشار إليهم مرحبًا. فضحكوا سعداء. لقد عرفهم. ونظروا إلى من حولهم يحكون لهم عن صديقهم الحبيب.



جاء المعلم بصلة، واجتمع بالأدباتية، استمع المعلم بصلة لما حدث بانتباه. وقرر أن ينفذ خطة للتغلب على هذا الشيطان.

●●●

بعد العشاء وتناول الطعام الوفير، وشرب مشروب اللوز، وتبادل التعليقات على ما حدث، أمر شاهين باشا باستئناف المساجلة.

●●●

فوجئ عبد الله بأن الأدباتية استخدموا الطارات النحاسية وأسرفوا في إحداث الرنين بها. كما أخذوا يرقصون ويهزون الطراطير، في محاولة لتشتيت ذهن عبد الله. كما أنهم لم يتركوا عبد الله لقافية واحدة. فكان كل أدباتي يتدخل بقافية جديدة. وأصبح كل منهم ظهيرًا لأخيه في محاولة جادة لإرباكه.

لكن عبد الله كان صامدًا لهم. وانطلق شيطانه يسخر منهم، ويطلق عليهم أوصافًا كاريكاتورية، فيضحك الباشا، ويضحك المشاهدون.

تدخل المعلم بصلة أكثر من مرة لإنقاذ الموقف. استخدم المعلم بصلة ألفاظًا غريبة ليعجز النديم. لكن النديم ينطلق، ويلقى شعره بغزارة، ويسخر ويطلق تشبيهاته المضحكة.

حتى انهار الشيخ بصلة وبكى قائلاً:

- كنت أظن نفسي خير أدباتي على ظهر الأرض ولكني مجرد تلميذ في مدرسة هذا الشيطان.

انتهى السجال. صفق الجميع لعبد الله وحملوه هاتفين له.

وجاء ضابط شاب قبله إعجابًا وقال له:

- اسمي طاهر ومعجب بك.

كذلك أبدى أحمد أبو سعدة عمدة بدواي إعجابه الشديد. وطلب منه أن يزوره في قريته.

أيضًا أحمد الغرقاوي وهو تاجر من أعيان المنصورة مع علي النوتنجي بك. كلهم أعجبوا به، وطلبوا منه التفضل بزيارتهم، إلا واحدًا: صديق عزيز مدّ له يد العون في وقت صعب، هو عبد العزيز حافظ الذي أحبه حبًا نقيًا نقاوة البلور. قال له بصوت حزين مشحون بالشجن:

- أصبحت يا عبد الله نديمًا للباشوات، وسوطًا قاسيًا على الفقراء.

انقبض قلبُه، وطاف في خياله وجه صديقه القديم علي أبو النصر الذي قال له ذات يوم: أنت حصان جامح.

اتجه عبد الله إلى المسرح، وطلب الكلمة.

صمت الجميع، وتركَّزَت النظرات في بؤرة اسمها عبد الله مصباح.

بين كل النظرات الموجهة إليه، قرأ نظرات الأدباتية المنكسرة... المليئة بالحسرة والرجاء.

ارتعش الأدباتية عندما نظر عبد الله إليهم.

صمت عبد الله طويلاً، ثم ركز نظراته على الباشا وقال بصوت قوي:

- إني أرفض جلد الأدباتية.

زأر الجمهور غيظًا من حرمانه من باقي الفرجة.

صمت مرة أخرى... إلى أن ساد الصمت فقال:

- إني أتنازل عن مكافأتي للأدباتية، وأعترف بأنهم عباقرة في فنهم!

ثم أكمل وكأنه يعتذر:

وأنا لم أتغلب عليهم إلا بسبب قراءاتي للشعر ودراسة كل فنونه، وحفظي للأغاني للأصفهاني، وكتب منتخب الأدب.

صمت وارتشف قليلاً من الماء وقال:

- لكن الأدباتية يرسلون الشعر على سجيتهم بدون دراسة، ولذلك فهم أكثر استحقاقًا مني.

ألتهبت الأكف بالتصفيق بسبب بلاغة عبد الله، وحرارة كلماته.

صعد شاهين باشا كنج على خشبة المسرح، وأشار للجميع بالصمت، فصمتوا، وقال وهو ينقل نظراته بين عبد الله وبين الأدباتية:

- لقد أمتعتنا يا نديم، كما أنهم أمتعونا، ولذلك سأصرف للأدباتية مكافأتهم كاملة.

وجفت قلوب الأدباتية، وصعدت مشاعرهم من وهدة اليأس إلى قمة الأمل، فبكت أعينهم بدمع رقيق يمس شغاف القلوب.

وهاج الجمهور وهم يصيحون: عبد الله... عبد الله.

ضحك شاهين باشا كنج، وهو يغالب أمواج السعادة التي غمرته هذا اليوم، ثم أشار بيده.. فصمت الجميع .. وقال شاهين باشا من خلال ابتسامة واسعة:

- وسأصرف لعبد الله مكافأته، وسأعينه نديمًا لي، وسيكون اسمه من اليوم: عبد الله النديم.

جرى الأدباتية نحو النديم، وحملوه على الأعناق، وهم يبايعونه، ويعلنون للجميع بأن عبد الله النديم هو معلمهم الكبير، ورئيسهم الجديد.

الفصل التاسع
الطائر يصنع عشاً

أفرد للنديم حجرة فاخرة في قصر شاهين باشا كنج.

قدم له أشهى طعام.

لبس الثياب الفاخرة.

وحرص شاهين باشا على أن يصاحبه النديم في كل مكان.

إن النديم يتذوق الحياة بطريقة غير عادية، يتفاعل معها، يحب الأزهار ويتغزل في ألوانها التي تبعث أطيافًا من البهجة في قلبه. يستنشق النسيم بعمق كأنه يغذي النفس بأرق ما في الحياة. يحب الناس ويتعاطف معهم، ويغفر لهم هفواتهم. يرى في كل شيء جمالاً وقدرة خارقة لله سبحانه وتعالى.

كان يعبر عن أحاسيسه ببساطة، فيرى فيها شاهين باشا أضواء كاشفة تزين الحياة العادية.

أحبه شاهين باشا وتمنى أن يعيش معه لآخر العمر.

لكن النديم لا يشعر بالسعادة. القلق يأكل صدره ن ويجعله متبرمًا بكل شيء.

حسم موقفه، وذهب إلى شاهين باشا، ووقف كسيفًا خجلاً.

نظر إليه شاهين باشا وتنهد، وقال بصوت مندى بالحب:

- لقد أحببتك يا ولد... فلماذا تريد مفارقتي؟

أجابه النديم بصوت خافت:

- كيف عرفت يا باشا؟

ضحك شاهين باشا، ولكنها ضحكات غير سعيدة، وقال له:

- يا نديم لقد امتزجت روحي بروحك من شدة حبي لك فأصبحت أعرف خلجات نفسك، وأقرأ لواعج قلبك.

تحير النديم، وعانى طويلاً حتى قال:

- سأذهب لرؤية أبي يا باشا.

قام شاهين باشا، واحتضن النديم، وبكى الاثنان.

قال له شاهين باشا وكلماته مبللة بالدموع والحب:

- اسمع يا ولد أنا أعرفك وأحبك، ولذلك سأتركك على أن تعود إليّ في أيّ وقت تراه، فقلبي وبيتي مفتوحان لك، أريد أن أموت وأنت بجانبي لكي أتمكن من الضحك، وأنا أودع الحياة.

بكى النديم كثيرًا، وكاد يتراجع ولا يغادر، لكن القلق ينهش صدره، هناك شيء غريب يدفعه للحركة بعيدًا.

انصرف النديم بعد أن زوّده الباشا بكثير من النقود والهدايا.

كان شاهين باشا يعلم أن عبد الله طائر محلق... وسجنه في القصر سيصيب روحه بالهزال، ولن يصلح للتغريد.

أما النديم فهو بالتأكيد لم يجد نفسه في أن يكون نديمًا ومضحكًا للمدير ورفاقه.

ترك النديم القصر الفخم والحياة المترفة.

إلى أين يا نديم؟!

أرض الله واسعة يا خلق

وبدواي قرية في طنطا من أراضي الله.

وعمدتها أحمد أبو سعدة معجب به، ودعاه ملحًا في الذهاب إليه.

رحب به العمدة ترحيبًا حارًا. أفرد له دارًا، وقربه منه. لكن النديم اكتشف أن الرجل غبيٌ وفظٌ ولا مجال للمقارنة بينه وبين شاهين باشا كنج.

بدأ يشعر النديم بثقل الوقت، فرأى أن يبذل جهده في تعليم أبناء العمدة، ويجعلهم يحسون بالجمال الكائن في الطبيعة، ويدركون معاني الرحمة والإخاء والتعاون والرفق. لكن الأولاد مثل أبيهم، عقولهم محشوّة بالتبن، ولا يحبون القراءة، ويطمحون إلى التحكم في الفلاحين.

لا يجد النديم نفسه إلا مع الفلاحين، فكان يجلس معهم على المصاطب يحكي لهم ويسامرهم. لكنهم عاملوه بحذر شديد بسبب نزوله عند العمدة. فلم يحظ إلا بصداقة واحد كان يحفظ جزءًا من القرآن. بعد مرور عام.

طلب النديم من العمدة أجرة تعليمه لأطفاله.

سخر العمدة منه، وقال له:

- أنت تأكل وتنام فماذا تريد أكثر من ذلك؟!

رفض العمدة أن يعطي النديم مليمًا واحدًا. قرر النديم الانتقام من العمدة بطريقته الساخرة.

جلس النديم على المصطبة، وجمع الفلاحين حوله. أخذ يحكي لهم الطرائف عن العمدة.

أسر أحد الخفراء في أذن العمدة بما حدث من النديم. فثار العمدة ثورة عارمة، فهناك من تجرأ وهز صورته أمام الفلاحين. وقرر العمدة أن يحرق النديم جزاء لوقاحته وجرأته.

لم ينقذِ النديم من هذا المصير المؤلم إلا صديقه حافظ القرآن. فقد جاء إليه جريًا، وحادثه في الخفاء، وطلب منه مغادرة البلد فورًا ودون أي تأخير.

•••

النديم لا يستقر في مكان. يذهب إلى أي مكان تقوده قدماه إليه. يذرع القرى، ويجلس على المصاطب. ويستظل تحت أشجار النخيل. يعشق المواويل لأنها كثيرًا ما تحكي عن الغربة والصبر.

أخيرًا وصل إلى المنصورة. أحمد الغرقاوي تاجر كبير عرفه أثناء واقعة الأدباتية. فرح الرجل كثيرًا بالنديم، فهذا نموذج لم ير مثيلاً له في حياته. وكثيرًا ما تحدث عنه الغرقاوي لأصدقائه.

تمنى أحمد الغرقاوي أن يستأثر بالنديم، ويصبح صديقًا له فرحب به كثيرًا، وأكرم وفادته. وعرفه على زملائه.

استمع الغرقاوي لحكايات النديم، فهوَّن عليه وفتح له محلاً لبيع الخردوات في المنصورة.

رسم الغرقاوي حياة مستقرة للنديم، يفتح له محل خردوات، ويزوِّجه من إحدى قريباته، ويجعل أسبابه تتصل بأسباب النديم.

لكن النديم كان متفرغًا لمسامرة الأصدقاء والتعرف على الناس، وقراءة كل ما يقع تحت يده من كتب.

كما كان يراقب الأجانب وهم يغزون كل مكان. رآهم في القرى، في كل القرى التي مر بها.

وها هم يملئون المنصورة بمحلاتهم وتجارتهم، وكل شيء له فن لديهم. فتجارتهم مغلفة. وعرضها لها فن، وبيعها بالأجل والدين جائز. مثلهم مثل حكوماتهم التي دفعت الخديوي إسماعيل إلى الاستدانة حتى أغرقته.

أفلست تجارة النديم. ترك النديم المنصورة وعاد إلى شاهين باشا كنج.

احتضنه الباشا ضاحكًا، وضمه بقوة كأنه يضم على ذكريات دافئة.

سأله بصوت حنون ودود مبلل بالشوق:

- أين كنت يا نديم؟!

نظرات شاهين إليه كلها حب ورجاء، وهو يهمس لنفسه هذا الشاب لا أحد يوقفه. والفشل يزيده صلابة. وسخريته من الأحداث سلاح قوي يحمي روحه من الانكسار.

آه لو يقبل أن يعيش معه! لكن عليه أن يصحح الميزان.

أرسل شاهين باشا في طلب عمدة بدواي.

جاء العمدة السمين يرتجف. ازداد العمدة رعبًا عندما رأى وجه شاهين باشا المتجهم. والنديم الملعون يجلس بجانبه وينظر إليه شامتًا.

قال شاهين باشا بلهجة مخيفة وهو يشير إلى عبد الله النديم:

- هذا الرجل عمل مدرسًا لأبنائك، أليس كذلك؟

هدأ العمدة نفسه وبدأ يناور:

- بلى، ولكنهم لم يفكوا الخط حتى الآن.

لهجة شاهين باشا ازدادت قوة وغضبًا واحتقارًا وهو يقول:

- ولن يفكوه لأنهم مثل أبيهم، عقولهم محشوة تبن.

ثم قال بلهجة آمرة باترة:

- أعطه مائتي جنيه.

قال العمدة، وقلبه يتلوى بسبب بخله الشديد

- مائتين يا باشا؟

شاهين باشا وهو يتأهب للانقضاض عليه:

- وخمسين .

سقط قلب العمدة بين رجليه بسبب زيادة المبلغ قال وهو يتراجع ويتألم:

- مائتان وخمسين.

تقدم شاهين باشا نحو العمدة، والعمدة يتراجع مضطربًا خائفًا، مثل فأر يتراجع أمام قط يتأهب لافتراسه.

وقال العمدة في محاولة يائسة لتهدئة الباشا:

- سأدفع مائتين وخمسين يا باشا.

لكن شاهين باشا لم يكتف بذلك وقال له:

- ستدفع ثلاثمائة جنيه الآن وفورًا... وإلا...

هتف العمدة بصوت باكٍ:

- سأدفع... يا خراب بيتك يا عمدة.

●●●

ذهب النديم بثروته إلى صديقه التاجر أحمد الغرقاوي. أعطاه النديم مائة جنيه تعويضًا عما سببه له من خسارة.

قبلها أحمد الغرقاوي على مضض.

ركب النديم القطار إلى الإسكندرية. فوجئ الشيخ مصباح الخباز العجوز بشاب نظيف مهندم يقف أمام الفرن ويقول له:

- السلام عليكم يا عم مصباح.

ردّ الرجل بشكل تلقائي:

- وعليكم السلام ورحمة الله يا بك.

نظر العم مصباح إليه متسائلاً، فالبك ما زال واقفًا، ولا يفصح عما يريد. ليس من المعقول أنه يريد شراء خبز بنفسه، المفروض أن يرسل خادمه.

قال العم مصباح:

- آسف يا بك لا يوجد خبز.

البك يبتسم، ووجهه فرح، والغريبة أنه وجه مألوف كأنه رآه في يوم ما.

ها هو يتكلم... يا لنبرات الصوت المنبعثة من جوف الزمن كأنها تذكره بالولد المتشرد عبد الله.

- ألا تعرفني يا عم مصباح؟!

يا لله.. كأن الأمر حقيقة.

وكأن هذا البك هو بنفسه.

ابنه المجنون عبد الله

لكم يحب هذا الولد الغريب

قال وهو يبتسم، ودموعه مترقرقة في الأحداق:

- مَن؟! ظننتك مت.

- عمر الشقي بقي.

احتضنه الأب غير مصدق، وتفجرت المشاعر، فأطلقت الدموع الحبيسة.

بعد أن هدأ سأل ابنه وهو يتأمله إعجابًا وفخرًا:

- ما هذه الملابس المحترمة التي ترتديها؟!

ضحك عبد الله، وقال بسخريته المعروفة:

- لقد ورثت الخديوي إسماعيل.

قال الأب متعجبًا:

- ومن يكون هذا الخديوي؟ أهو قريب لنا؟!

رأى النديم أن يأخذ والده إلى منطقة بعيدة، فسأله:

- كيف حال أمي؟

قال الأب، وهو ما زال غير مصدق:

- أمك بخير، وتعتقد أنك موظف كبير في المحروسة.

قال النديم بهدوء:

- هي على حق.

تفرّسَ الأب في وجه ابنه ليعرف إن كان يهزل أو يقول صدقًا.

ثم سأله بحزن:

- هل تزوجت يا عبد الله؟
أجابه عبد الله ساخرًا:
- لم أجد قليلة البخت يا أبي.
الأب بصوت ضعيف فيه رجاء:
- تكلم جد.. مرة واحدة يا ابني.
قال النديم بمنتهى الجدية:
- وهل أنا أهزل؟!
صمت الأب قليلاً ثم نظر إليه وسأله:
- هل معك نقود؟

رأى النديم أن يتخلص من هذا الموقف بطريقة عملية، فأخرج من جيبه مائة وخمسين جنيهًا ووضعها أمام أبيه. لم يصدق الرجل ما يرى، وجمع النقود بسرعة ووضعها في جيبه، ثم سأل ابنه:

- كم عددها؟
أجابه النديم بتلقائية:
- عدها بنفسك.
أشاح الأب بيده مبتسمًا:
- قل أنت.
قال النديم ببساطة:
- مائة وخمسين جنيها.
صمت الأب وتفرس في وجه ابنه مرة ومرات ثم قال:
- كفى هزلاً يا مجنون!

النديم بثقة شديدة:

- عدها لتتأكد بنفسك.

اكتسى وجه الأب بجدية بالغة وسأل:

- من أين حصلت عليها؟

وقبل أن يجيب الابن، أخرج الرجل النقود من جيبه ودفعها لابنه، وهو يقول:

- خذ... بيني وبين الحرام ربنا.

دفع النديم النقود إلى أبيه وقال مؤكدًا:

- إنه مال حلال يا أبي.

التفت الأب إلى ابنه وقال:

- سأغلق المخبز، ونشتري لحمًا وفاكهة وخضارًا ونعود لأمك لنقضي ليلة جميلة، على أن تحكي لي كل شيء عن هذه النقود.

ذهب الاثنان إلى السوق، وطاف الابن بأبيه في عوالم غريبة. حكى له عن قصر الوالدة باشا، وعن خليل أغا، وشاهين باشا كنج، وعمدة بدواي. والرجل يضحك ويضحك ثم ينظر إلى ابنه محاولاً معرفة حقيقة هذا الولد... هل يمزح كعادته أم يتكلم عن حقائق غريبة، وقال له:

- كفى يا ابني... حقًا أنا رجل جاهل، ولكني لستُ أبله لتحكي لي قصصًا خيالية.

قال النديم بصوت هادئ:

- ولكنها حقيقة يا أبي.

علامات التعجب والاستنكار على وجه الأب وهو يسأل:

- أنت كنت موظف تلغراف في قصر الأميرة ممبار؟!

النديم: اسمها خوشيار يا أبي.

ما زالت علامات التعجب محفورة على جبين الرجل وهو يقول:

- أنت تعرف مدير الوجه البحري عشرين باشا تنك؟!

قال النديم من خلال ضحكات سعيدة راضية:

- تنك؟! آه لو سمعك!

لاحقه الأب بالتساؤل:

- أنت تمتلك ٣٠٠ جنيه؟

النديم بثقة:

- نعم

الأب بسرعة ولهفة:

- أين الباقي؛

- رددت دينًا عليّ بمائة جنيه، وزودت بعض الأصدقاء بقليل من النقود، واشتريت ملابس جديدة و.....

- كفى... كفى... هيا لنفرح أمك.

في خلال أسبوع واحد كان النديم متزوجًا. هكذا رأى والداه ليستقر الطائر في عشه ولا يهاجر مرة أخرى إلى بلاد الله... خلق الله.

الفصل العاشر
هجرة الطائر

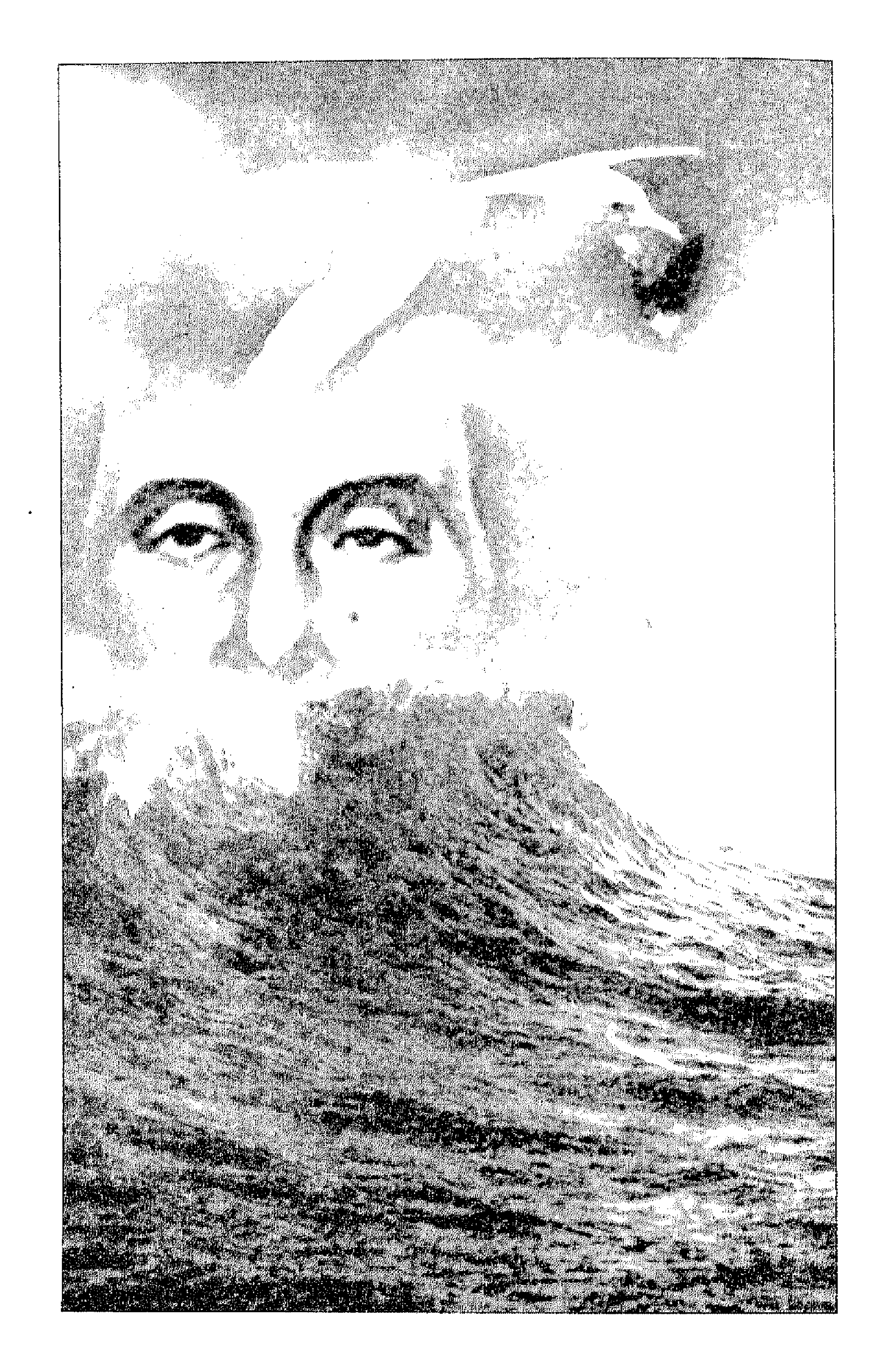
أمواج البحر ما زالت تلاطم الشاطئ. وأمواج القلق لم تهدأ في صدر عبد الله النديم.

واجهه أبوه بسؤال كان يحاول الهروب منه: ماذا ستفعل يا عبد الله لكسب عيشك؟! لابد للإنسان من عمل، وأنت الآن لك زوجة مسئولة منك. حاول النديم أن يجد إجابة للسؤال ففشل. فهو لا يصلح للوقوف في المخبز. أو للبيع في المحلات. ولا يتقن صنعة أو مهنة. ولا يحمل شهادة تعينه على الوظيفة الحكومية. هو يعرف مهنة التلغراف... ولكنه طرد منها ولا يستطيع العودة إليها.

هناك هدف غامض يظهر ويختفي، هناك دافع قوي يدفعني دفعًا إلى ماذا؟ إلى أين؟ إلى طنطا. هناك جو سمح تهدأ في أحضانه الثورة الناشبة في الصدر.

بعد عشرة أيام من الزواج. لم يعثر أحد على النديم. فقد ركب القطار إلى طنطا، وهو لا يمتلك إلا ثمن التذكرة. وتمنى لو قابل عبد العزيز حافظ ليتذكر معه أيامًا جميلة.

ونزل في طنطا. ذهب إلى مقهى الميدان. الوجوه تغيرت... جلس وشرب القهوة.



جاء صبي المقهى، وطالبه بثمن المشروب، فأجابه بهدوء شديد:

- اذهب يا بني... إلى حين ميسرة.

بعد قليل، جاء صاحب المقهى، وهو يرفع صوته كأنه ثور يعلن عن نفسه. وشد صاحب المقهى النديم بقوة صارخًا:

- ماذا تظن بنا يا خروف؟

أجابه النديم وهو يبتسم ساخرًا:

- عيب يا معلم أبوك يزعل.

هاج المعلم وثار، وهو يهز النديم من يديه والنديم يضحك.

لم يتوقف المعلم إلا على صوت دوكار يقف قريبًا منه نزل علي التتونجي بك من الدوكار واتجه إلى النديم وسأله منزعجًا:

- ماذا هناك يا نديم؟!

النديم من خلال ابتساماته قال:

- لا شيء يا علي بك... اختلاف على ميراث فقط.

تنبه المعلم لإجابة النديم. وسأل علي بك النديم:

- هل هو أخوك:

النديم: نعم... هو أخي الجاهل... طلب أبي منه أن يعود بي لأخذ نصيبي من الميراث، وقدره ثلاثة آلاف جنيه.

تعجب علي بك التتونجي وسأله مندهشًا:

- ولماذا لا تذهب معه؟!

النديم بهدوء وجدية بالغة قال:

- إنه يريد أن يسرقني، ويأخذ العزبة والبيوت كلها.

شعر علي بك بالغضب، وربت على كتف المعلم وقال له بلهجة حاسمة:

- أنت أخوه... ولكن هذا لا يعطيك الحق في أن تسرقه.

فجأة غرق المعلم في الضحك، وهو ينظر إلى الاثنين وهو يضرب كفًا بكف ويقول.. «بيوت وأطيان.. وعزب هل تصدقه يا بك.. إنه رجل مفلس».

أدرك على التتونجي الموقف. فأخذ النديم من يده، وذهب به إلى عزبته وقال له بلطف وود:

- أنت الآن وكيل عزبتي، وهي أمانة في رقبتك، ولن أقبل منك عذرًا، وعليك أن تحضر الى المحروسة كل اسبوع لتعرض عليّ سير العمل.

قال النديم بحزن: لكن خليل أغا حرَّم علي المحروسة.

قال التتونجي ساخرًا: ومن يكون خليل أغا؟! إنه مجرد رئيس حاشية عند الوالدة باشا، أما أنا فمدير عام عند ولي النعم الخديوي إسماعيل باشا. وسأمنع الأغا من أي تصرف ضدك.

وكأن علي بك أزاح كل العقبات من أمامه لينطلق. فهو يحب مصر المحروسة ويحب شوارعها ويحب مقاهيها ولياليها ويحب محمود سامي البارودي الذي أصبح يشغل منصبًا كبيرا في الجيش. أسرع إلى مقابلته، ورحب به البارودي ترحيبًا حارًا.

وعلى مائدة الطعام الفاخرة استمع البارودي إلى حكايات النديم في القرى... ومع الفلاحين والصيادين... وعشاق الموّال... وفي الموالد... وحكاياته مع عمدة بدواي والتاجر أحمد الغرقاوي.

انبهر البارودي من حكايات النديم العجيبة وقال له:

- تذكرني بجحا وأبو نواس.

قال النديم، وهو يتناول قطعة لحم.

- لا أنا أفضل منهما.

ابتسم البارودي، وقال بحب:

- أنت أفضل... لو كنت عملت معي، لماذا تهرب يا نديم ممن يحبونك؟!

قال نديم بسرعة:

- حفاظًا على حبهم.

تأمله البارودي بإعجاب بالغ وقال:

- لكم أحبك يا نديم !!

- وأنا أحب شعرك متى ستسمعني الجديد.

قال البارودي، وقد فرغ من طعامه:

- ما زال الوقت أمامنا طويلاً، في المساء نحكي ونشعر ونعيش معًا لحظات الصداقة والود والذكريات!

سأله النديم وهو يتأهب لترك المائدة:

- وماذا عن الآن؟

ابتسم البارودي، وقال له:

- الآن ذاهب إلى الأفغاني.

توقف النديم، وفاضت عيناه بنظرات الإعجاب وقال:

- آه !!.. هذا القطب لكم يعجبني.

التفت إليه البارودي مبتسمًا وقال:

- إنه يسأل عنك كثيرًا.

في المقهى، وجد الشيخ جالسًا، والحلقة متسعة.. ازداد العدد كثيرًا.

وقف الأفغاني مرحبًا به، واحتضنه وسأله بلهفة:

- أين كنت يا رجل؟!

أجابه النديم وهو يحتضنه:

- كنت أسأل الشمس متى تشرق؟!

جلس النديم مع البارودي.

لاحظ النديم وجود ضابط أسمر ضخم عملاق، له وجه كبير وملامحه واضحة وصريحة.

كان الضابط صامتًا صمتًا عميقًا كأنه قد دفن عزيزًا له.

ورأى النديم ضابطًا سودانيًا نحيل القوام... لامع العينين، ولكنه يشارك زميله في الصمت العميق.

مال النديم نحو البارودي وسأله هامسًا:

- من الذي مات؟!

انزعج البارودي وسأل باهتمام:

- من؟.. ماذا تقول؟

همس النديم مبتسمًا:

- الضابط العملاق هذا... ما اسمه؟

- أحمد عرابي... لكن أنت قلت شيئًا عن الموت.

ازدادت ابتسامة النديم اتساعًا وقال:

- انس... ومن بجانبه؟

- مَن؟

- الزول

- عبد العال حلمي.

- لا مكان لي هنا.

- لماذا؟!

- كل هؤلاء الضباط ماذا يفعلون؟

- مصريون مثلك.

- فلنستمع لمولانا.

وفوجئ النديم بالأفغاني يوجه إليه الحديث:

- قل لي يا نديم

تيقظت أعصاب النديم وسأل:

- ماذا يا مولانا؟

- هل كنت في الإسكندرية؟

- نعم يا مولانا.

وفوجئ النديم بالأفغاني يسأله:

- ولماذا تركتها؟

ماذا وراء هذا السؤال يا مولانا، أنا أعرف أنك لا تلقي الكلام هكذا... كيفما اتفق»

- وأنت يا مولانا... لماذا تركت أفغانستان؟

أجابه الأفغاني فورًا:

- لأراك يا نديم.

قال النديم مبتسمًا:

- وأنا جئت لأراك يا مولانا.

صمت الأفغاني، وأرسل نظراته النفاذة لتخترق صدر النديم وقال له:

- عد إلى الإسكندرية يا نديم.

اضطرب النديم، وهاجمته أمواج القلق فسأل منفعلاً:

- ماذا أفعل يا مولانا؟!

ما زالت نظرات الأفغاني النفاذة مصوبة نحوه، وقال:

- في الإسكندرية.. ألم تر جراكسة ويونانيين وأروام وأجانب من كل ملة ودين؟!!

حار النديم.. ماذا يريد الأفغاني.. أجابه موافقًا:

- نعم يا مولانا.

- تركوا بلادهم، وجاءوا إلى الإسكندرية. هل تظنهم رسل حضارة يا ابني، أم تراهم يعرفون بلادكم أكثر منكم؟!!

«إن الأفغاني رجل لا أستطيع أن أهزل معه، وكلامه حاد قاطع، مثل اليقين، وهو يشير إلى مهمة لا أعرفها حتى الآن».

وكل أسبوع كان ينزل النديم إلى المحروسة ليرى علي بك التتونجي، ثم يسرع إلى قهوة متاتيا بالعتبة ليرى جمال الدين الأفغاني، وليعرف منه الهدف المنشود، لكن جمال الدين قال له: تأمل وادرس ما تحتاجه بلدك واستعن بالله وبالمثقفين، وستجد الهدف.

●●●

وقف النديم أمام علي التتونجي بك وقال له:

- يا بك... أنا عائد إلى الإسكندرية.

سأله الرجل متعجبًا ومشفقًا:

- ماذا ستفعل هناك يا بني؟

قال النديم بلهجة حالمة، وكلمات واضحة:

- وماذا يفعل اليونانيون والجراكسة والأروام والأجانب من كل ملة ودين؟!!

الفصل الحادي عشر

صديقان حميمان

فتح الشاب، ونظر الى الطارق غير مصدق، من يكون؟ إنه رآه من قبل، وترك فيه انطباعًا قويًا.

من يكون؟ إنه أثار أسئلة ذكية. من يكون؟ إنه عارض الأفغاني.

نعم... نعم.. إنه يتذكره. هذا شخص لا ينسى لكن الاسم:

- اسمي عبد الله مصباح وشهرتي النديم.

ضحك أديب إسحق، وهلل، وتقدم من النديم مرحبا وهو يقدم نفسه:

- اسمي أديب إسحق.

قال النديم، وكأنه يبرر مجيئه:

- جئت لك بتوصية من الأفغاني.

احتضنه إسحق، وهو يقول بسعادة طفولية:

- وهل تحتاج توصية لتعرفني؟!

ابتسم النديم، وقال له:

- وبالرغم من ذلك لم تدعني للداخل.

جذبه أديب إسحق للداخل، وهو يبتسم:

- أنت في بيتك يا رجل، وأنا في حاجة إليك.

رأى الكتب ملقاة في كل مكان. كتب باللغة الفرنسية. الشوام يتقنون الفرنسية. وجد النديم عددًا من كتب التراث العربي. ووجد قرآنًا وإنجيلاً. أمسك النديم بالقرآن وسأله مبتسمًا:

- هل قرأت القرآن يا إسحاق؟

أجابه أديب إسحاق، وهو يواجهه بابتسامة مماثلة:

- نعم قرأته مرات ومرات، وقرأت التفاسير أيضًا، وهل تعتقد أن شابًا مثقفًا مثلي يهمل أثرًا ثقافيًا هامًا ومنبعًا للغة العربية؟ وفيضًا من الصور البليغة والحكم المنتقاة؟!

تساءل النديم:

- هل قرأته كأثر ثقافي فقط؟

سأله أديب إسحاق مغيرًا موضوع الحديث:

- وأنت... هل قرأت الإنجيل؟

- نعم قرأته بفضل فانوس أفندي.

تحرك أديب إسحاق نحو المطبخ، وهو يقول له:

- دعني أقدم لك مشروبًا، ثم نذهب معًا لسليم النقاش.

●●●

في بدروم شقة قديمة وَجَدا سليم النقاش غارقا في مراجعة «بروفة» جريدة التجارة.

وعندما رأى النديم في زي المشايخ، ابتسم ورحب به، وبعد أن تم

التعارف سأله سليم النقاش:

- هل يمكنك مراجعة المقالات من ناحية اللغة، وتصويب الأخطاء النحوية؟

أجابه النديم مبتسمًا:

- وتصويب الأخطاء الفكرية أيضًا.

هز سليم النقاش رأسه، وهو يتساءل إن كان هذا الرجل يمزح؟! ثم أعطاه مقالة ليراجعها، فقرأها بسرعة غريبة، وصحح أخطاءها بدقة.

استرد سليم النقاش المقالة، ونظر إلى الأخطاء المصححة، وأدرك أن صاحبه متفقه في اللغة.

قال النديم وهو يشير إلى المقالة:

- هذه المقالة تذكرني بعمدة بدواي وحاشيته.

سأله الاثنان: كيف؟

قص النديم حكاياته مع العمدة وحاشيته وأولاده ومقابلة العمدة مع شاهين باشا كنج.

ترك سليم النقاش الجريدة، ونظر إليه باهتمام شديد تلونت مشاعره بالبهجة، واكتسى وجهه الصارم ببسمة.

أما أديب إسحاق فإنه كان ينفرد وينطوي ممسكًا بطنه، ويضحك كما لم يضحك من قبل، وأخذ يشير للنديم مطالبًا إياه بالصمت حتى لا يموت من الضحك.

والنديم يمثل ما يحكي وينفعل ويجسد الشخصيات تجسيدًا حيًّا مبرزًا للطابع الكاريكاتوري في الشخصيات.

وبعد أن انتهى، قال له سليم النقاش:

- أرجوك اكتب لنا ما قصصته الآن.

وناوله كمية من الأوراق.

كتب النديم بدون تردد.

قرأ أديب إسحاق وهو يضحك.

وقرأ سليم النقاش بجدية بالغة، ثم قال له:

- ما كتبته سيكون شيئًا جديدًا. لكن أنت حكّاء عظيم ومن لا يسمعك ولا يراك وأنت تحكي فاته نصف عمره.

وعلق أديب إسحاق قائلاً:

- لكن ما كتبه أيضًا شيء مُسَلٍّ وطريف وجديد ومثير ومضحك....

- كفى... كفى... سأنشره فورًا.

من هذه اللحظة أصبح النديم ملاصقًا لأديب إسحاق وسليم النقاش. لكنه كان يحب أديب إسحاق أكثر. يسير معه على شاطئ البحر يحكيان ولا يملان.

اكتشف النديم أن الشاب واسع الثقافة، وفيلسوف كبير. كما اكتشف أديب إسحاق أن النديم لا يقل عنه ثقافة، بجانب موهبة فذة في الشعر والزجل، كما أنه يرى الأشياء بوجدان طفل، ويرى



في المألوف من الأحداث طرافة غير عادية، وقدراته في الحكي لا تبارى.

قال أديب إسحاق له:

- آه لو رأيتك قبل إغلاق فرقتي المسرحية.

سأله النديم باهتمام:

- فرقتك المسرحية؟! وهل كنت أصلح ممثلاً؟!!

تفحصه أديب إسحاق ضاحكًا وقال:

- أنت ممثل عبقري، وجهك طيع، وتعبيرات وجهك تجسد الحدث بكل انفعالاته. أنت تتلبس الشخصية بشكل مدهش، وتنتقل من شخصية لأخرى بمرونة فائقة، كيف لا تستثمر هذه الصفات؟!

لماذا لا تكتشف نفسك؟!

●●●

الأفغاني سأله مستنكرًا: هل الأجانب يعرفون بلادكم خيرًا منكم؟! وأديب إسحاق يعرفني أكثر من نفسي. كأن هناك قوى توقف إبداع المصريين، وتشل قدراتهم.

إنه رأى ذكاء فطريًا عجيبًا في الفلاحين. وتعامله مع البسطاء وصغار الموظفين أكد له أن لهؤلاء الناس قدرات مختزنة تنتظر إطلاقها.

كأن المصريين يحتاجون إلى مشروع قومي يلتفون حوله، ويعطونه ما في داخلهم.

فليكن هذا شغله وتفكيره وحلمه. مشروع قومي يلتف حوله المصريون ويحرر قيودهم ويثير همتهم.

سيطرت عليه الفكرة، فكان يقرأ الكتب وذهنه يبحث ويسأل كما سأل أديب إسحاق عن الناس في أوربا وعملهم وطريقة حياتهم، ونظامهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

أطلع أديب إسحاق على تفكيره قائلاً:

- إني أبحث عن مشروع يشترك فيه كل المصريين، يشعرون فيه بذاتهم، ويحققون شيئًا يلمسونه بأيديهم.

قال له أديب إسحاق بصوت ودود:

- أنت هكذا، حالم دائمًا، ولكني سأساعدك.

النديم: كيف؟

إسحاق: سأهديك مكتبتي، وسأكتب لك من باريس.

- باريس؟!

- سأرحل إلى باريس لأخرج جريدة مصرية من هناك.

شعر النديم بحزن رقيق يتسلل إلى قلبه، فهذا الشاب أحبه بعمق، وها هو سيتركه إلى باريس.

فسأله بحزن:

- ولماذا من باريس؟

- لأكتب بحرية.

- وهل معك ما يكفيك للعيش هناك؟

- إني مكلف من الحزب الوطني.

- خذني معك.

- وحلمك الوطني؟!

- لم يتبلور بعد.

- ضُمَّ عليه الجوانح، واحضنه، واقرأ وناقش وتأمل، حلمك لن يتبلور إلا هنا يا نديم.

- وأنت يا توأم الروح؟

- سأكتب لك على أن تكتب أنت إليّ.

احتضنه أديب إسحاق، وامتلأت عيناه بغشاء رقيق من الدموع، هي ذوب حب، وخلاصة مشاعر دافئة ربطته بصديق أحبه كما لم يحب أحدًا من قبل.

سافر أديب إسحاق إلى فرنسا بعد أن أوصى سليم النقاش بأن يكتب له عن النديم وحلمه القومي الذي يحلم به.

الفصل الثاني عشر

الحـلم يتبــلور

انهمك أديب إسحاق في العمل، وخرجت جريدته من فرنسا تهاجم نظام الحكم في مصر، واستبداد الخديوي إسماعيل وبذخه.

كان صديقه سليم النقاش يرسل له أخبار مصر المحروسة. معظم رسائل سليم عن النديم وشخصيته الفريدة، وقدرته الخارقة على الإنجاز والعمل.

قال في رسالته:

- تبلور حلم النديم في مدرسة قومية، احتضن حلمه ودرسه دراسة جادة. ثم قرر أن يبدأ.

ذهب إلى كل ندوات السمر، وحفلات الزواج وكل تجمع ثم يبدأ بقص حكاياته المضحكة، وينفذ منها إلى فكرته وهي إنشاء مدرسة تكون منتدى للأدباء وأصحاب الرأي يتناقشون فيها. ومنتدى لرجال المال يفكرون في مشروعاتهم على أرضها. ويدرس فيها التلاميذ الخطابة والصحافة والتمثيل على أن يكون منهاج المدرسة قوميًا يعيد اكتشاف تاريخ مصر. مدرسة تبتعد تمامًا عن كل ما هو أجنبي حتى لا يشوه الوجدان المصري.

ومن خلال حكايات النديم الضاحكة أقبل الناس على الفكرة. بدأت حملة تبرعات، والناس تدفع إعجابًا به. وظهرت للوجود مدرسة صغيرة لتعليم الأيتام، يشرف عليها النديم نفسه.

وضع منهج المدرسة بنفسه، وقام بالتدريس فيها مع آخرين. وسميت المدرسة باسم الجمعية الخيرية الإسلامية.

أمسك أديب إسحق رسالة أخرى قادمة من سليم النقاش وقرأ:

– في ذات يوم دفعت للنديم بمسرحية، وطلبت منه أن يصحح أخطاءها، بعد يومين أحضر المسرحية مصححة وغاب أسبوعين ثم عاد ووضع أمامي أوراقًا كثيرة وقال لي:

– جاء دورك لتقرأ.

سألته:

– ما هذا؟

– إنها مسرحية

– من مؤلفها؟

– أنا

أخذتها معي البيت وقرأتها؟ وأنا غير مهتم.

لكن في الحقيقة تفاعلت مع المسرحية التي أطلق عليها اسم «الوطن».

إنها مسرحية مصرية تتحدث عن المصريين. تضحكهم، وتسلط الضوء على أخطائهم. وتنير وعيهم.

أقول لك الحق ضحكت كثيرًا من أحداث المسرحية. إن النديم عبقري حقًّا.

أعدت له المسرحية، وسألته،

– ماذا ستفعل بها؟!

فأجاب بصوت جاد:

– سيمثلها أطفال المدرسة.

فضحكت مرة أخرى من جنون هذا النديم. تصور أطفال المدرسة الحفاة الجهلة يمثلون. لكن النديم لا يوقفه شيء. فإنه بدأ في تدريب الأطفال، وأثارهم وأضحكهم، ومثل أمامهم جميع الأدوار. وبذلك استطاع أن يخرج منهم أحسن ما فيهم. وذات يوم فوجئتُ بإعلانات في مدينة الإسكندرية عن مسرحية «الوطن».

امتلأت المدرسة بالجمهور. لم يصدق الناس ما يرون من شخصيات وحكايات زعيط ومعيط ونطاط الحيط وأبو دعموم وخالتي بهانة الزعلانة. انفجروا في الضحك وهم يرون حسبة برما التي يقوم بها المرابي الأجنبي في امتصاص دم الفلاح.

وازداد ضحكهم وهم يضربون كفًّا بكف عندما رأوا نطاط الحيط شبيه الإفرنجي وهو ينصب على زعيط ومعيط ويأخذ بيتهم وقمحهم وطيورهم وحيواناتهم.

كانت هذه المسرحية فتحًا للنديم. انهمرت التبرعات على النديم، وهذا شجعه على فتح فروع أخرى للجمعية.

خرج بفرقته المسرحية المكونة من الأطفال إلى القرى المجاورة. كان يمثل في أجران القمح، وظهرت مجموعة مساعدة له.

انتشرت الفكرة، وتحرك النديم حتى غطى كل القرى المصرية. وظهرت مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية. أصبحت الجمعية منتدى للمثقفين والاقتصاديين. نهج النديم نهجًا عجيبًا في التدريس. فقد حوَّل شخصيات مسرحيته إلى مواد دراسية.

فمسائل الحساب تدور حول حسبة برما التي قام بها نطاط الحيط في الضحك على زعيط ومعيط، وتطالبه بإظهار الحق. ومواضيع التعبير تتكلم عن طريقة النهوض بزعيط ومعيط. وهكذا، حتى التاريخ أصبح فيه نطاط الحيط، وهم الغزاة المعتدون، مثل نابليون وريتشارد قلب الأسد وهولاكو وسليم العثمانلي.

●●●

قرأ أديب إسحاق أسماء خبر إسقاط إسماعيل من العرش، وتنصيب الخديوي توفيق بسعادة. لأنه يعرف أن توفيق كان يحضر ندوات الأفغاني، ويظهر التودد للوطنيين.

●●●

رسالة جديدة جاءت من سليم النقاش. قرأ أديب إسحاق أن الخديوي توفيق بدأ في مهادنة الوطنيين. وأعلن حمايته

للجمعيات الخيرية الإسلامية. كما نصب ابنه عباس حلمي مشرفًا عليها. وساعدها بالمال. أصبحت الجمعيات الخيرية الإسلامية حقيقة واقعة.

سارع المصريون لإلحاق أبنائهم بها. ولمع النديم لمعانًا كبيرًا، وأصبح شخصية أسطورية. وكانت المفاجأة عندما نادى النديم بإنشاء جمعيات خيرية قبطية.

وخطب في محافل الأقباط، وأدهشهم باستشهاده بآيات من الإنجيل بجانب آيات من القرآن، ونجح في مجهوده.

مفاجآت النديم لا تنتهي، فقد ألف مسرحية أخرى وأخرجها ومثلها مع تلاميذه. وكانت كسابقتها تندد بالاستبداد وبالأجانب والأتراك.

النديم يضحك ويسخر من الجميع بما فيهم المصريين.

وتنبه رياض باشا رئيس الوزراء المستبد إلى هذا الداعية الخطير، فأقام ضده الفتن. وأوعز إلى مدير الإسكندرية ليوجه تهمة الإضرار بميزانية الجمعية.. للنديم ونجحوا في إقصائه بعد أن تحقق حلمه.

●●●

لكن هل ينهزم البطل؟ هل يستسلم؟ هل ينكسر؟

إن النديم يقفز فوق فشله دائمًا ولا يستسلم، ويجدد أهدافه كما يتنفس.

الفصل الثالث عشر

النديم صحفيًا وثائرًا

رفع سليم النقاش رأسه مستطلعًا لهذا المقتحم عليه حجرته المزدحمة بالأوراق. وجده أمامه وعيناه تلمعان بمرح، ويضغط على شفتيه بعصبية، إن هذا الرجل لا يهدأ.

سأله بأسلوب ضجر:

- ماذا بك يا نديم؟

بصوت واضح يضغط على كلماته حرفًا حرفًا:

- أريد أن أصدر جريدة.

مع النديم عليك أن تتوقع كل جديد وغريب وطريف نظر إليه نظرات ساخرة، وقال له:

- نديم... أنت أكثر من مجنون.

مال النديم بنصفه العلوي، واتكأ على المكتب ونظر إلى سليم النقاش بقوة، وقال له:

- وأنت... ألا تصدر جريدة؟

أجابه سليم النقاش بصوت يحمل كثيرًا من الاستهانة:

- من مال الحزب الوطني... يا صديقي.

اعتدل النديم، ولكن نظراته مصوبة بقوة إلى سليم النقاش وسأل:

- ولماذا لا أصدر جريدة يا سليم يا نقاش؟

وقف سليم خلف مكتبه، وواجه النديم قائلاً ببرود:

- لأنك لا تمتلك الخبرة أو المال يا حبيبي.

جلس النديم على الكرسي، وأشار إلى سليم أن يجلس.

قال النديم متهكمًا:

- الخبرة؟! ولماذا جئتُ إليك يا صديقي؟!

جلس سليم النقاش، وقال:

- والمال؟!

أمسك النديم بجريدة أمامه، وقال:

سأحرر الجريدة بنفسي وستطبعها أنت في مطابعك، وستأخذ الثمن بعد التوزيع.

وقف سليم النقاش ثائرًا، وقال:

- لا يا صديقي... العمل عمل، ولا مجال للعواطف فيها.

وقف عبد الله النديم، وقال وهو يهز يده في وجه النقاش:

- كتبت سنوات في جريدتك دون أن أقبض مليمًا، ولم أضع اسمي على مقال، والآن أنا ألجأ إليك، وكنت أدخرك لأيام صعبة، وأنا متأكد من...

جلس النقاش، وهو يشعر أنه لا مجال ولا قدرة له على معارضة النديم فقال له:

- يكفي يا نديم، سأطبع لك، على أن تدفع بعد التوزيع.

رأى النقاش أن يطبعه ليتخلص من هذا الموقف، وهو واثق من أن ما يعرضه صديقه مجرد نزوة عابرة.

•••

جاءه النديم بعد ثلاثة أيام بالمقالات، وتصميم الجريدة، وتبويبها، وأطلق عليها اسم «التنكيت والتبكيت».

قرأ النقاش، ومشاعر المعارضة تتزاحم في داخله، ثم وضع الورق جانبًا، وقال له:

- ما هذا يا حبيبي؟! هل هذه صحافة؟!

قال النديم بلهجة باترة:

- أنت عليك أن تطبع فقط.

وقف النقاش ثائرًا ومعترضًا، وقال كأنه يقذف بآخر سهم لديه.

- لكن هذا جنون غير منطقي.

قال النديم بهدوء يصل إلى حد البرود:

- وهل هناك جنون منطقي يا نقاش؟!

وظهرت الجريدة للناس. فاق نجاحها كل توقع. تخاطفها الناس مبهورين. كانت جريدة فريدة في نوعها.

اعتمد النديم فيها على الحوار الفكه بين مجموعة، والقصة

الشعبية الضاحكة، والشخصيات الكاريكاتورية التي برع النديم في تصويرها.

قرأ الناس في الجريدة عن «مجلس طبي لمريض بالإفرنجي». عرف الناس أن النديم يرمز إلى مصر، وتكالب الأجانب عليها.

في القرى، تجمع الفلاحون حول من يعرف القراءة ليقرأ لهم ما حدث في دوار العمدة. كانت الجريدة صورة أخرى من مسرحياته.

صوَّر فيها أمراض المجتمع بصورة فكهة، ونقد لاذع ومن مواضيعها قصص صغيرة فكهة، وحكايات لاذعة التقطها النديم من الواقع الخصب الذي عاشه، ورسمها بريشة لماحة ناقدة. ضحك وسخر وأوجع القلوب، وداوى النفوس، واستنهض الهمم. أشار إلى المثالب، ودعا إلى وجدان اجتماعي يصنع الحضارة. واشتهر أمر الجريدة.

شعر رياض رئيس الوزراء أن النديم هذا مثل الكرباج يجلد بدون رحمة نظام الحكم القائم، ولكن بشكل رمزي يفهمه الجميع، فقرر أن يزج بالنديم في السجن.

لكن الأحداث تطورت بسرعة مذهلة، الخديوي توفيق انقلب، وأصبح صورة ممسوخة من أبيه إسماعيل، فأمر بإبعاد الأفغاني.

وقام عرابي بثورة من الجيش والشعب للمطالبة بحقهم في

الحياة بكرامة في بلدهم، وبمساواتهم، ويا للعجب بالأجانب وطالبوا بالدستور والبرلمان.

ماذا يستمع؟!!

كل ما يحلم به النديم تحقق، تلاميذ الأفغاني تحركوا، الأمة تنهض، عرابي يقفز بالأمة عبر التاريخ. كان هذا الضابط العملاق يجلس صامتًا لأنه كان يحلم. وشريف أصبح رئيسًا للوزراء. ورياض المستبد... استبعد. والبارودي أصبح وزيرًا للحربية. إنها أيام مجيدة يا نديم.

وبدون تفكير وضع نفسه في القطار إلى القاهرة المحروسة.

عندما طلب الدخول إلى محمود سامي البارودي، اعتذرت هيئة السكرتارية بانشغال ناظر الحربية. لكن النديم أصر، وطلب منهم إبلاغه باسمه عبد الله النديم.

ابتسموا عندما سمعوا اسمه.

كل منهم تذكر شيئًا قرأه لهذا الرجل الأعجوبة. وما قرأوه أضحكهم وأوجعهم وشحنهم بالثورة.

لم يصدق الحرس ما رأوه بأعينهم. البارودي باشا ناظر الحربية يخرج مسرعًا ويعانق النديم ويسأله بود عميق: أين كنت يا رجل، نحن في أشدّ الحاجة إليك.

الفصل الرابع عشر
النديــم وعــرابي

جلس النديم بجانب البارودي في العربة الحكومية واتجها إلى أحد معسكرات الجيش. وجد النديم نفسه وجهًا لوجه أمام أحمد عرابي. كلاهما وقف يتأمل الآخر فترة.

قال عرابي في نفسه: أهذا الفأر هو النديم؟!

وقال النديم في نفسه:

- لا أصدق أن هذا الفيل هو قائد الثورة.

لكن ما إن تحدَّث كل منهما للآخر، ما أن تكلم عرابي وسَخِرَ النديم حتى تعانق الاثنان.

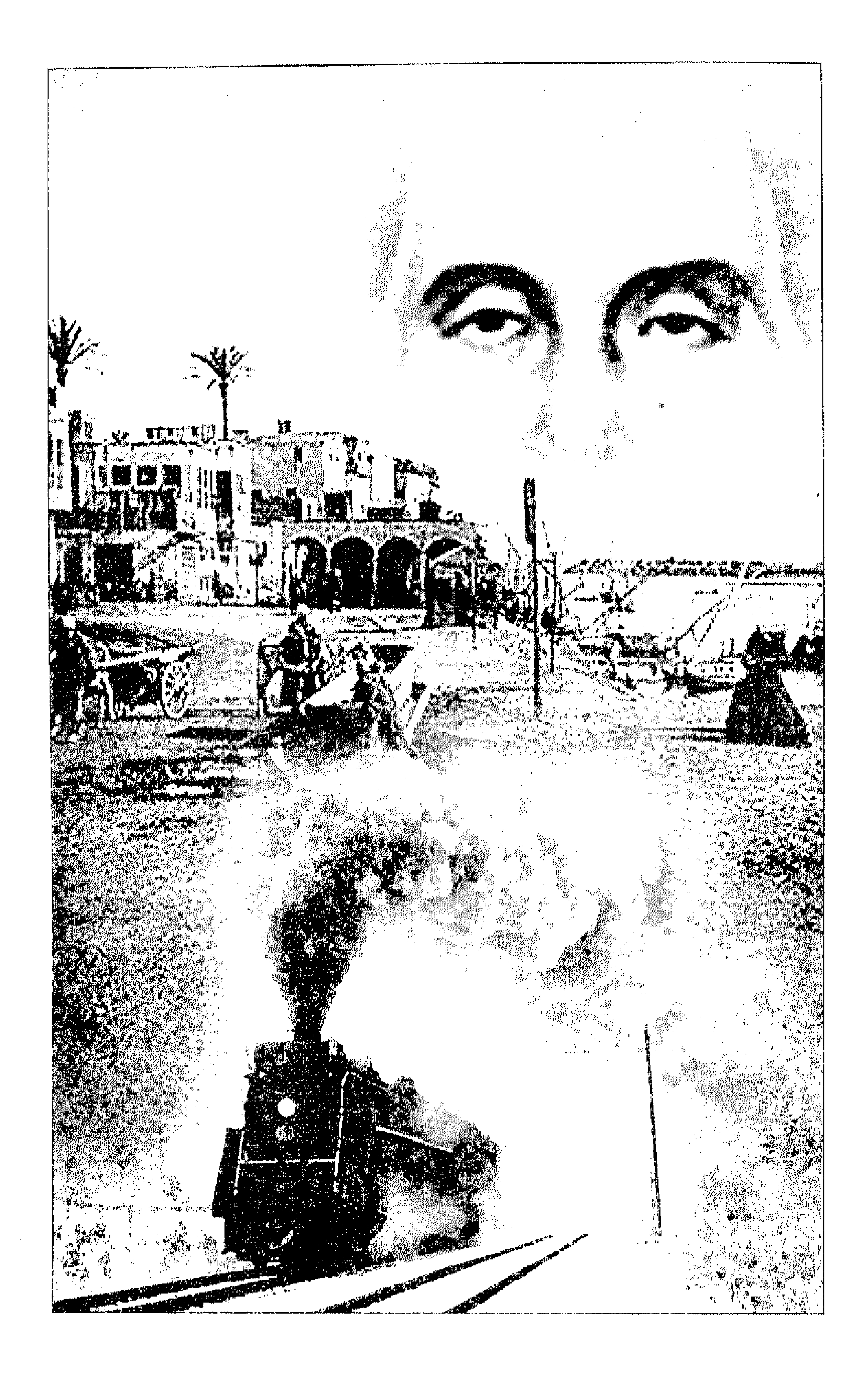
قال له عرابي: أنت رجلنا.

وقال له النديم: بل أنت رجلنا.

●●●

اتفق النديم مع عرابي والبارودي على أن يصدر مجلة تعبِّر عن الثورة العرابية. اقترح عرابي اسم «الطائف» للمجلة.

قال عرابي ضاحكًا: لا أريد التنكيت.



فرد النديم بسرعة: إذن تريد التبكيت.

وجم عرابي للحظة. إن هذا النديم حصان جامح، لكن الثورة تحتاجه. ظهرت مجلة «الطائف» باللغة العربية الفصحى، بعيدة عن روح الهزل. تتكلم عن البرلمان والدستور.

فوجئ النديم برسائل الاحتجاج من القراء مطالبين بجريدتهم القديمة، فعاد النديم إلى طبيعته يضحك، وينتقد، ويسخر، ويحكي حكاياته العجيبة التي تجسد المثل الذي يقول «شر البلية ما يضحك».

حرر النديم جريدته منفردًا، فلا أحد يستطيع أن يجاريه في أسلوبه الساخر ودعاباته اللاذعة، وحماسه الشديد للعمل.

●●●

خاف شريف باشا ناظر النظار، وواضع أول دستور في مصر في عهد الخديوي إسماعيل.

خاف الرجل من طغيان الجيش، فاشترط لقبوله تشكيل الوزارة في أن يبتعد الجيش، ويعود إلى ثكناته.

غادرت فرق الجيش القاهرة المحروسة إلى معسكراتها والنديم، يركب القطار مع الفرق المغادرة.

ويتوقف القطار عند كل محطة أمام الجموع التي خرجت لترى وتتحقق من أنّ المارد استيقظ من نومه.

- ويطل النديم عليهم فيضحكون سعداء. هذا هو ابنهم. ويخطب النديم فيهم، فيخرجون من جلدهم من شدة السعادة.

هل تتحقق كل الآمال مرة واحدة؟!!

السخرة، والكرباج، وأفندينا، ياه!!

والتركي والجركسي؟!! والخواجة خرستو وخرالامبو؟!! وكل صعاليك الأرض وذئابها؟!!

هل تشرق الشمس غدًا، فتغسل كل الأحزان؟ هذا ما وعدهم به النديم.

خطب عرابي فيهم فأدهشهم، وأدهش النديم قبلهم، فالرجل فصيح اللغة سليم البيان، قوي الإلقاء، وصوته محبب للنفس، وآيات القرآن ترصع خطبه من غير تكلف.

إنه مهرجان الحرية وعرس التحرر.

قال عرابي للنديم عندما رأى حماسه الزائد:

- خفف من آمالك قليلاً.

قال النديم له مشجعًا:

- بل أقدم ولا تهب، فقد كسرت القيد.

وضع يده على كتف النديم، وقال له بصوت عميق:

- تذكر يا نديم إن ميلاد طفل شيء قاسي، فما بالك بميلاد أمة؟!

كان عرابي يرى المستقبل ويخشاه. أما النديم فكان يرى المستقبل كما يتمناه.

وتطورت الأحداث. كل القوى القديمة تجمعت لمنع الفريسة من الحركة. ترك الخديوي مقره في القاهرة، ولجأ إلى الإسكندرية في حماية القنصل البريطاني.

وتولى البارودي نظارة النظار. وعرابي نظارة الحربية. بل أصبح عرابي كل شيء. وأطلق النديم عليه (حامي حمى الأراضي المصرية). ودبر الإنجليز مذبحة مفتعلة في الإسكندرية ليظهروا العرابيين بمظهر العجز. وأعطوا إنذارًا. وانتقل الخديوي توفيق إليهم.

قاوم عرابي ومن معه مقاومة الأبطال في كفر الدوار. حتى أن الإنجليز لم يستطيعوا أن يقتحموها لمدة ٤٥ يومًا. وكان النديم هو وزارة الإعلام المتحركة، وخطيب الثورة ومندوبها. هو الثورة متحركة بين الشعب والجيش.

كانت هناك مشكلة غاية في الصعوبة قابلت رجال الثورة العرابية وهي أن الخديوي توفيق عندما ترك القاهرة، أخذ معه كل الأموال.

خطب النديم في القرى طالبًا المدد للجيش. فجاء الفلاحون بأبقارهم وطيورهم. وخطب النديم في الميادين وفي الحدائق، وفي القصور. وكتب في «الطائف». فتبرعت نساء من الأسرة المالكة بحليهن تعبيرًا عن استيائهن من الخديوي توفيق للجوئه إلى الإنجليز. وتبرع الأثرياء بالنقود والغلال. تحول معسكر عرابي

إلى حياة كاملة. وبنى الفلاحون في المعسكرات عددًا من الأفران للخبيز وتسوية الطواجن للجنود الأبطال. والنديم يعيش أفضل أيامه... أيام الحلم الذي تحقق، فكان يبذل طاقة هائلة في الكتابة والخطابة ومناقشة الجنود والرد على الافتراءات، وتنوير الرأي العام. من خلال رؤية حالمة لمستقبل مشرق.

لكن كما قال عرابي:

«إن المرأة تعاني في ميلاد طفل واحد، فما بالك في ميلاد أمة».

ونديم يعلم تمامًا أن المستقبل لا يُصنع بجولة واحدة ولكنه يحتاج إلى عمل جماعي متواصل.

× × ×

تضافر المستعمر الغاشم مع الخليفة العثماني الذي خاف من ثورة عرابي. فأصدر السلطان فرمانًا بعزل عرابي، ونعته بالمروق على الدين الإسلامي والخيانة، لأنه لا يطيع أولي الأمر.

وتصدى النديم للسلطان ونعته بالخائن المتقاعس الذي يسلم ديار المسلمين لأعدائها.

تضافرت كل القوى المعادية من مستعمر إنجليزي مخادع وخليفة تركي غارق في الجهل، وخديوي مهزوز يريد عرشه بأي ثمن، وخونة في الداخل ربطوا مصالحهم بمصالح الإنجليز. فانهزم العرابيون في التل الكبير. وانتهى فصل قوي وعنيف ومشرق من فصول كفاح مصر وولادتها الحديثة.

استسلم الجميع. وعاد الخديوي توفيق على أكتاف الإنجليز. واستمع السلطان العثمانلي إلى آخر أنغام أمان يا للي أمان، وعاد المصريون إلى قراهم يعالجون جراحهم، ويحلمون بفجر آخر لا بد من قدومه، وكل آتٍ قريب.

الجميع سكنوا في أحضان الهزيمة، وقبعوا خلف الجدران ووراء قضبان السجون وبعد الأفق، إلا رجل واحد، قرر ألا يستسلم، ويهرب بحلمه، بحث الجميع عنه ليأخذوا بثأرهم منه، وليقصفوا قلمه ويكسروا سيقانه، ويقصوا لسانه.

تلفت الجميع في كل مكان. لم يجد أحد النديم. هرب الحلم من قبضة أياديهم القاسية. أين النديم.

هناك ١٠٠٠٠ جنيه ذهب مكافأة لمن يأتي به حيًا أو ميتًا.

الفصل الخامس عشر
الحـلم الهـارب

كان المركب يسير في النيل بالقرب من بنها. ويحمل معه رجلاً كهلاً له لحية بيضاء كثيفة، يخفي عينيه بعصابة سوداء، ويمسك عصا طويلة يتوكأ عليها عند الضرورة. وبجانبه شاب يساعده.

وقف المركب قريبًا من المرسى.

قال رجل على الشاطئ بصوت حزين:

- إنهم يبحثون عن النديم، ويفتشون كل الطرق، وكل المراكب. والجنود في كل مكان.

ضحك المراكبي ضحكات صافية مليئة بالإعجاب وهو يقول:

- لن يمسكوه... النديم جِن.

وفي المركب، ارتعش الشاب عندما سمع هذا الحديث، وأمسك بيد العجوز خائفًا. طمأنه العجوز، وطالب المراكبي بأن يرسي المركب على الشط.

خرج العجوز يتوكأ على عصاه، ويطمئن مرافقه:

- اطمئن يا حسين، فلن يقبضوا علينا.

قال حسين بصوت يرتعش من الخوف:

أخاف عليك يا سيدي النديم

- وأنت أيضًا يطلبونك يا حسين، لكن اطمئن.

سار العجوز يتوكأ على عصاه. وساعده الجنود على اجتياز الطريق. كما طالبوه بالابتعاد. دعا لهم بالتوفيق، واختفى مع مرافقه. وظهر في المنصورة عند صديقه التاجر أحمد الغرقاوي الذي فغَرَ فاه دهشة وهو يرى المتسول العجوز يرفع العصابة السوداء عن عينه ويلعب له حواجبه، ويقول له:

- كيف حالك يا غرقاوي؟ وحال صديقك النديم؟

أخفاه الغرقاوي لمدة عام، سعيدًا به، يجلس معه كل يوم، يستمع لأخبار الثورة العرابية، وتحليل النديم لأحداثها. ويحضر للنديم الكتب والجرائد.

ذات يوم، أمسك النديم بجريدة، وقال:

- ياه!! اسمع يا حسين

قال حسين بجزع:

- ماذا يا سيدي؟!

أجاب نديم، وقد اكتسى وجهه بالقلق والحزن:

إنهم يطلبون رأسك، ويرصدون مكافأة ٥٠٠٠ جنيه للقبض عليك، أما أنا فيضعون مكافأة ١٠٠٠ جنيه فقط. ارتجف حسين، وانتفض قلبه، وهو ينظر في الجريدة قائلاً بلهفة:

- أين؟.. أين يا سيدي؟

أشار النديم إلى سطر في الجريدة.

هز حسين رأسه، وهو لا يعرف شيئًا، ثم قال:

- وما العمل يا سيدي؟

أجابه النديم بصوت عميق:

- لا شيء، اسمع كلامي، ولا تخف.

قبل حسين يده قائلاً:

- سمعًا وطاعة يا مولاي.

●●●

وفي قرية العتوة من أعمال مديرية الغربية، رأى الشيخ محمد الهمشري شيخًا سودانيًا، يقرأ الطالع يصحبه تابع يمسك كتابًا كبيرًا، ويصيح الأطفال خلفهم «بربري كداب يفتح الكتاب».

وقف الرجلان أمام الشيخ الهمشري

قال الشيخ السوداني:

- هل تريد أن تقرأ طالعك يا سيدي؟

- لا بأس.

فتح السوداني الكتاب الكبير الأصفر، وقال له:

- اسمك محمد الهمشري وتعمل تاجرًا. حق أو لا؟

قال الهمشري، وهو غير مصدق:

- حق يا شيخ حق.

استمر النديم في الكلام، وهو ينظر في الكتاب:

- وأنت رجل كريم، وتساعد كل كريم، وتبتعد عن اللئيم، وبتعرف النديم.حق أو لا!

قال الهمشري، وهو منجذب بقوة للشيخ السوداني:

- حق يا شيخ حق.

سأله النديم بصوت عميق:

- وبتحب النديم... والا...

قاطعه الهمشري قائلاً:

- النديم يا ولداه على النديم، أين هو يا مولانا؟ لا بد إنه مات يا ولداه!!

قال النديم:

- النديم حي يرزق، ويتكلم معك، ويطلب الحماية حق والا....

- حق يا مولانا حق.

عاش الهمشري ثلاث سنوات سعيدة مع ضيفيه. وأفرد لهما قاعة داخلية، وكتم أمرهما، وكل يوم يجلس إلى النديم، يستمع إليه، ويتعلم منه، والنديم يحكي عن التاريخ، وعن مصر المستقبل، وعن رجال قادمين، ونصر لا ريب فيه.

طوال السنوات الثلاث. علم النديم حسين القراءة والكتابة، كما حفظه أجزاء من القرآن. وتفرغ النديم للتأليف في تاريخ مصر، وفي الشعر، والتأمل وتفسير القرآن، إلى أن فُجِعَ بوفاة

الرجل الكريم، فقرر أن يغادر المكان.

لكن المفاجآت لم تنته بعد، فإن زوجة الشيخ دخلت، وهي متشحة بالسواد.

امـرأة مصرية شامخة قوية، تجرّ في يدها فتى في الخامسة عشرة، ألقت السلام، ثم جلست مواجهة للنديم وقالت لابنها:

- هذا هو النديم الذي سمعت عنه من أبيك الله يرحمه. أبوك أجاره ثلاث سنوات. فهل ستكون رجلاً مثل أبيك أم....

الفتى: كفى يا أمي، ومن أكون لأجير النديم.

ارتمى الفتى في حضن النديم، وقال له:

- روحي فداك يا عمي.

بكى النديم حبًا، إنه أعطى حياته لمصر، وها هم أولاد مصر يضعونه في قلوبهم، ويضمون عليه الصدور. أصبح حلمًا يقبضون عليه بقوة.

وبعد عام غادر القرية شيخ صوفي مغربي، يتحدث بلهجة المغاربة، ويريد الذهاب إلى مقام سيدي أحمد البدوي، وقد نذر المجيء من المغرب سائرًا على قدميه حتى ينال كل البركات.

وقف الشيخ المغربي وتابعه أمام محمد معبد الحلاق. سأله الشيخ المغربي:

- هل تعرف يا بني الطريق المستقيم لسيدي وسيدك أحمد البدوي.

ابتسم محمد معبد، وقال له:

- اخرج من القرية متبعًا هذا الطريق، وفي نهايته ستجد طريقًا مستقيمًا يؤدي بك إلى سيدنا أحمد البدوي.

أمسك النديم بيد محمد معبد قائلاً:

- تعال معنا يا بني لتنال البركات، وأسبغ عليك الدعوات وأبوك السقا مات.

نظر محمد معبد مندهشًا من هذا الشيخ العابث، وكاد يسبه، لولا أن الشيخ سأله عن أمور لا يعرفها إلا النديم، فاحتضنه معبد، وهو يبكي حبًا وشوقًا. وأخفاه معبد في دار متطرفة. وكان يذهب إليه في المساء بالطعام والأخبار.

وذات ليلة، تنبه النديم وحسين على صوت طرقات شديدة على الباب، وكاد حسين أن يموت رعبًا.

لكن النديم قال له بثقة:

- افتح الباب يا حسين، فلا مهرب من إرادة الله وما قدّر سيكون.

فتح حسين الباب، فاندفع رجل أعرج إلى الداخل، ارتمى في حضن النديم يقبله ويعاتبه، والنديم يسأله عن أمه. فقال له أحمد جودة:

- أمي ماتت، المهم أن تقوم الآن، فهناك فرقة مسلحة قادمة للقبض عليك.

سار أحمد جودة أمام النديم وحسين يخترق بهما الحقول، مبتعدًا عن الطرقات المأهولة.

اقترب الخيل، وجرى الجميع، واختفوا خلف ساقية، لكن صهيل الخيل اقتحمهم، وقفز حصان أمامهم، وتطلع إليهم الضابط، ثم لوى عنق الحصان، وابتعد قليلاً، ثم عاد مرة أخرى واقترب منهم، ونزل من على الحصان، وتفرس في النديم وابتسم قائلاً:

- أنت النديم، أنا أعرفك وأحبك. أنا الضابط طاهر تعرفت بك عند شاهين باشا كنج. خذ هذه النقود وسر في هذا الاتجاه، لأننا سنبحث عنك في الاتجاه الآخر.

عندما وصل النديم إلى خارج القرية، طلب من أحمد جودة أن يعود. لكن جودة تمسك بالذهاب معه.

قال النديم: نحن ذاهبان إلى الإسكندرية.

سأله أحمد جودة بلهفة.

- وكيف أطمئن عليك يا أخي؟!

- الله موجود يا جودة.

احتضنه أحمد جودة، وطفرت الدموع من عينيه، فهو يحب هذا الصديق حبًا كبيرًا.

أما النديم فإنه ذهب إلى محطة طنطا.

توقف حسين رعبًا، فلقد رأى المحطة ممتلئة بالجنود، لكن النديم صاح بصوت مرتفع:

- يا الله... يا الله.

التفت الجنود إليه، فازداد صوته ارتفاعًا، وهو يقول:

يا حي يا قيوم، الشفاعة يا رسول الله. المدد، انصر جندك، وقَوِّ إيمانَ عبدك. وأهلك المارق الخائن يا الله... يا الله.

سقط حسين على الأرض مغشيًا عليه. أما النديم فأخذ يتمتم بأدعية وأوراد وتسابيح بلهجة مغربية.

التف الجنود حولهما، وأسعفوا حسينًا وحملوه إلى القطار. كما حرصوا على راحة الشيخ المبروك، وهو يدعو لهم. وهم يلمسون ملابسه.

وضع النديم مسبحة كبيرة حول عنق الضابط رئيس القوة متمنيًا له السلامة، ونجاح القصد.

تحرك القطار مبتعدًا، وعاد حسين إلى الوعي غير مصدق لأيِّ شيء.

فعلاً النديم جن. والنديم يتمتم بآية قرآنية أثيرة لديه قائلاً: «وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

توقف القطار في قرية الجميزة، واستقبل العمدة شيخًا عالمًا من أهل الشام، له لحية حمراء، ويمسك سيفًا خشبيًا، وتابعه يرفع راية مكتوبًا عليها لا إله إلا الله.

رحب بهما العمدة أيما ترحيب، وأمر بذبح خروف لهما.

طاف النديم به في بلاد الشام، يحكي له عن أهلها وعاداتها.

ضحك العمدة سعيدًا، وقال له:

- لم أسمع أحدًا يحكي بهذه الطريقة الضاحكة الساحرة سوى النديم الله يرحمه.

غشيه حزن رقيق، وسأل متأثرًا:

- هل مات النديم؟!

انتقل التأثر إلى العمدة فقال:

- الله يرحمه، كان رجلاً لا مثيل له. يخطف القلوب حبًا، ويملأ العقول علمًا. كان أملاً كبيرًا لهذه الأمة.

سأله النديم بتأثر:

- وكيف مات النديم يا سيدي؟!

حلق العمدة بعيدًا وقال بصوت ندي:

- لا أحد يعلم، فمن قال إنه مات في بر الشام. ومن قال إنه قُتل في أحد السجون. ومن قال إنه أصبح طعامًا للأسماك.

تنهد النديم وقال وقد بدأ في الابتسام:

- كل هذا حدث للنديم؟! وهل كنت تحبه يا سيدي؟

- كل الحب يا بني.

- وما رأيك لو كان النديم حيًا يكلمك؟

أخذه العمدة في أحضانه، وتدفقت الدموع من عينيه حبًا ولوعة. ثم أخذه العمدة إلى كوخ مهجور في أطراف مزرعته.

الفصل السادس عشر
الرجـــل الذهـــبي

كان يسكن في قرية الجميزة مخبر سريٌّ اسمه حسين الفرارجي. خرج هذا المخبر إلى المعاش وفي نفسه شيء من عبد الله النديم. لأن حسين الفرارجي كان من القوة السرية المخصصة للبحث عن النديم، والقبض عليه.

بذل الفرارجي جهده منقبًا، ومستطلعًا، وباحثًا، وكله أمل في أن يحصل على المكافأة ١٠٠٠٠ جنيه ذهبي ليعود إلى قريته ويشتري عددًا من الفدادين، ويصبح ثريًّا. لكن الملعون هرب، وبدد حلمه.

وخرج حسين الفرارجي على المعاش ليزرع أرضًا قليلة له. لكنه لم يفقد الأمل في العثور على الرجل الذهبي.

كان يذهب إلى كل مكان، وإلى أي تجمع، يسأل ويبحث ويتأمل. وأخيرًا سمع بشيخ عالم من أهل الشام وفد إلى عمدة قريته. ولأن حاسته الأمنية جعلته يشك دائمًا في الغرباء، ويبحث عنهم ويتقصى. لذلك ذهب مستطلعًا، وسأل، فعرف أن الشيخ قد انصرف.

لكن متى جاء الشيخ؟! ومتى انصرف؟! ولماذا يأتي إلى عمدتهم؟ ومتى يهتم العمدة بالعلماء؟! هناك شيء مريب في هذا الشيخ.

لم يهدأ حسين الفرارجي، وهو يتتبع العمدة من مكان إلى مكان إلى أن رآه يقصد إلى كوخ مهجور. ورأى حسين ضوءًا شاحبًا ينبعث من الكوخ الموجود في أرض العمدة.

تسلل الفرارجي إلى الكوخ، وتطلع من خصاص النافذة فرأى شيخًا يقرأ في كتاب، ومعه شخص آخر. استمر في مراقبة الرجلين أيامًا حتى تأكد من أن الرجل هو ضالته، وأن الذهب جاء إليه يسعى.

●●●

أحاطت قوة بالكوخ، وتم القبض على النديم أخيرًا.

قال له وكيل النيابة بأسلوب مهذب:

- اجلس يا سيدي.

قال النديم في نفسه هذا رجل مهذب. ابتسم وكيل النيابة له، وقال:

- هل تحب أن أحضر لك أي شيء؟

نظر إليه النديم مستطلعًا، وقال بصوت أسيف:

- لا تسخر مني يا بني.

قال الرجل متعجبًا، كأنه يعتذر عن خطأ لم يرتكبه.

- أنا أسخر من الساخر الأعظم.

- من تكون يا بني؟

- أنا قاسم أمين، أحد تلاميذك المعجبين، وأود لو تحكي لي كل شيء عن الثورة العرابية.

سأله النديم:

- قبل ذلك، ماذا حدث للعمدة؟ وماذا حدث لحسين الفرارجي؟

ابتسم الوكيل، وهو ينظر إليه بإعجاب شديد وقال:

- اطمئن فقد أخلينا سبيله بسبب شهادتك التي أبعدت كل الشبهات عنه.

وقف الوكيل وهو يكمل كلامه بلهجة ساخرة.

- أما حسين الفرارجي فقد هجر القرية بسبب هجوم الفلاحين عليه. هذا بجانب سقوط حقه في المكافأة، لأن المكافأة كانت مرهونة بسنة واحدة، والآن مر أكثر من تسع سنوات على اختفائك.

•••

أكرمه قاسم أمين كثيرًا، ترفق به وأخذ جانبه. لكن الحكم صدر بنفي النديم إلى يافا.

وفي يافا التف حوله عرب فلسطين ليحدثهم عما حدث في مصر. كما تجمع علماء الدين حوله يناقشونه ويستزيدون من علمه.

قضى النديم عامًا في يافا، حتى انتهى حكم الخديوي توفيق بموته، وتولى الحكم ابنه عباس حلمي الثاني الذي كان معجبًا

بالنديم فعفا عنه، وأرسل في استدعائه.

عامله الخديوي عباس حلمي معاملة حسنة، وقربه منه. وسرعان ما أدرك النديم حقيقة ما حدث في مصر المحروسة. فقد تربع الإنجليز في البلد، وسيطروا على كل شيء. وأصبح اللورد كرومر المندوب السامي هو كل شيء. هو الحاكم الحقيقي، والآمر الناهي في البلد. والخديوي الشاب يحاول أن يجد له مكانًا، أو دورًا يلعبه، ويحتاج إلى فارس يقف بجواره.

انتفض النديم حماسة، جمع همته وطلب من الخديوي أن يسمح له بإنشاء جريدة، فسمح له.

وكانت جريدة «الأستاذ»، تلقاها المعجبون يبحثون فيها عن ذكريات حبيبة، وأيام مجيدة. وبدأت الجريدة هادئة رصينة، ثم انطلق النديم يهاجم ويسخر وينتقد الإنجليز ويثير الحماس ضدهم.

عاد الفارس مرة أخرى لكن الإنجليز يسودون الحلبة.

●●●

طلب الإنجليز إبعاد النديم، فهو رجل قلق، غير مريح. فنُفي مرة أخرى... إلى أين يا نديم؟!

استدعاه السلطان إلى الأستانة، ليكون في رعايته. وصل إلى الأستانة فوجد مفاجأة في انتظاره.

الفصل السابع عشر
رحلتــه الأخــيرة

رائده الأول... ها هنا، جمال الدين الأفغاني... يا للمفاجأة!!

تعال إلى حضني لأعرف أني عشت أيامًا حقيقية. تعال لأتأكد من أن أيامي لم تكن عبثًا. وجد كل منهما سلواه في الآخر. يسيران على ضفاف البوسفور. يستعيدان ما حدث، ويتدارسان. يسخر النديم وينتقد، فيضحك الأفغاني، وتدمع عيناه حبًا، ويقول له:

- إن الله بالغ أمره يا بني، والله اسمه «الحق» وسيعود الحق إلى أهله، ما داموا يعرفون الله.

هل يهدأ النديم؟! هل آن له أن يخلد إلى العيش الناعم؟! فالسلطان عينه مستشارًا له براتب ضخم. وسكن في مسكن مريح. ومعه صديق يحب العيش بجانبه. لكن النديم الثائر أبدًا، الباحث عن الحق والعدل. الفارس الذي لا يمل المعارك. ولا يصبر على الخضوع. أثاره شخص غريب في بلاط السلطان، الشيخ الهادي الصيادي صاحب اللحية الطويلة المشعثة، القادم من أرض الشام.

هذا الشيخ استولى على عقل السلطان بدعوى قدرته على تفسير الأحلام، والتنبؤ بالمستقبل، وعلاج المرضى بالأعشاب الطبية وبالإيحاء.

درس النديم تصرفات الهادي الصيادي، فرآه بعيدًا عن الدين، فأطلق نكاته، وسخرياته عليه. وألف فيه كتابًا سماه «المسامير».

استمع أفراد الحاشية إليه، فضحكوا وسخروا واستهانوا بالشيخ الصيادي الذي عرف بأمر الكتاب. فانفجر غضبًا، ولذلك فإنه أوغر صدر السلطان ضد النديم، وأقنعه بأن النديم قد ألف كتابًا يذمه فيه ويسخر منه ويهزأ بشخصه المبجل.

غضب السلطان، وأرسل قوة له، هاجمت النديم وأوسعته ضربًا، لكنهم لم يجدوا الكتاب. تركه السلطان بعد أن منع الزيارة عنه. وحدد إقامته، وألغى راتبه.

●●●

حُدِّد الميدان يا نديم في البيت. ومُنِعْتَ من الحركة والكلام واللقاء. ماذا تبقى لك في الحياة يا رجل؟!

في ظلمة الليل، وهدأة الكرى، طرق باب البيت شيخ عجوز محبّ.. أفغاني الجنسية مسلم الديانة، أخوه في الإيمان، ترك له نقودًا وكتبًا، وقال له:

– صبرًا جميلاً يا بني، فلا حال يدوم. لكن النديم لا يهدأ،

والمعركة قادمة. وهاجمته جنود في داخله، هاجمته الجراثيم، هاجمه السل، وكان الفارس أعزل. حطمت كل أسلحته في معارك قاسية ضارية. فعليه أن يسلم ويرفع الراية. فسبحان من له الدوام.

أخيرًا أسلم عبد الله النديم الروح إلى بارئها. في ١٠ أكتوبر ١٨٩٦م وعمره لم يتجاوز أربعة وخمسين عامًا. لكنه عاش حياة عريضة تعادل ٥٤ قرنًا. وسكن قلوب المصريين. رغم أنه مات بعيدًا عن أعينهم. ولم يشيعه إلا عجوز غريب مثله أقلق العالم مثله. وعاش ليوقظ العقول وينهض بالهمم، ويطالب بالعدل والسلام.

المحتــوى

يصدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
المجلس القومى للشباب



ها نحن نواصل إصدار هديتنا لقراء مجلة الإذاعة والتليفزيون في صورة كتاب. يشاركنا في ذلك المجلس القومي للشباب، بالسلسلة الثقافية لطلائع مصر، هدية من المجلس لقراء المجلة. وهذا تعبير منا جميعًا عن إيماننا العميق بالحملة التي ترعاها السيدة الفاضلة سوزان مبارك، وبما تقومُ به الحملة القومية للقراءة للجميع من تأسيس أبنائنا والنهوض بهم في كل نواحي الحياة، ودعم كل ما هو ثقافي وحضاريّ من أجل النهوض بالإنسان، حتى أصبحنا نُحس ونشهد بأنَّ القراءة للحياة.

